وقفات مهمة في التاريخ الأفريقي



المكتبة الصّغيرة

٣٩

وقفات مهمة في التاريخ الأفريقي

عبد الله حسن محمد

الطبعة الأولى
ذو الحجة ١٤٠٢ هـ
سبتمبر ١٩٨٢ م

منشورات
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الغلاف من تصميم الفنان : محسن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى له العزة جميعا ومنه وحده النصر ، والصلاة والسلام على من أرسل هداية للعالمين .

وبعد ؛

فانه من دواعى سرورى وغبطتى أن أقدم هذا الكتاب الى القارىء العربي كمساهمة صومالية متواضعة فى المكتبة العربية وايماناً منى بأن الالتحام العربي الأفريقي الذى تدعمه جهات عربية سياسية وعلمية عديدة اليوم لن يؤتي ثماره مالم يسخر القارىء على فكرة ولو موجزة عن تاريخ افريقيا عبر عصورها المختلفة واعياً الظروف القاسية التى مرت بالانسان الأفريقي والتى تؤثر عليه حتى اليوم فكراً وعملا . كما تشكل نظرته الى الأمور وسلوكه ازاء المواقف المختلفة . لأن فهم الظروف الماضية شرط أساسى لادراك الأحداث الحاضرة كما يقول التاريخ .

وثمة ملاحظات حول الكتاب منها :

■ أنه لا يعنى من قريب ولا من بعيد بأحداث قطر معين أو تاريخ خاص ببلد من البلدان الأفريقية ولكنه مركز

على الأحداث العريضة التى تعد القاسم المشترك لأقطار القارة كلها . ولقد تجنبت قدر المستطاع حشو المعلومات والأحداث التى لا تخدم هـذا الغـرض أو قد لا تهم القـارىء العـربي تمشياً مع سياسة الكتاب .

■ أننى لم أذيل الـكتاب بالمراجع لأن المعلومات الواردة فيه بعضها خلاصة تجاربى وتصوراتى الخاصة وبعضها الآخر قد توفر لديّ فى صورة ملاحظات مدونة خلال سنوات طويلة من قراءات متعددة لا أعرف لها مرجعاً رغم ثقتى فى صحتها ثم أن هذه المعلومات على درجة كبيرة من المشاعية ان صح هذا التعبير ، بحيث لم يعد لأحد حق الادعاء لملكيتها .

■ ان أفريقيا السوداء هي موضوع بحث هذا الكتاب .. وقد تعمدت فى ذلك اعتقاداً منى بأن الأقـلام العربيـة قـد اسهمت فى الكتابة عن الجزء العربي من القارة الأفريقية . وهذا لا يعنى أن شمال أفريقيا الغربي لم يتعرض للأحداث والتجارب العامة التى مرّت ببقية أجزاء القارة .

■ وأخيراً فان ثقتى كبيرة فى أن يبلل الكتاب ريق القارىء العـربي ان لم يرو ظمـأه ، كما آمل أن يحـذو اخـواني الصوماليون حذوى فى الكتابة بالعربية لغة الأمة العربية التى انتماؤنا الى جامعتها عام ١٩٧٤م لم يكن سوى تقنين الواقع ، واقع أن عروبة الصومال حقيقة ثابتة لغة وديناً وتاريخاً وأملا ، وستظل كذلك باذن الله ؟

عبد الله حسن محمد

الرياض في ١٤٠١/٣/٦ هـ

الفصل الأول

١ ـ أصل الأفريقيين السود :

ينبغى تذكير القــارىء قبــل كل شىء أن غير المسلمين لم يتفقوا على أصــل الحيــاة الــكونية والانســـان بصفة خاصـــة ، فَضَلّوا وأضلّوا وأتوا بشطحات عجيبة واستنتاجات شتى منها :

أولا : أن الانسان انما تطور من الغوريللا ، وهي أرقى أنواع القردة من حيث الذكاء والشبه بالانســـان . فيقولون أن الغوريللا هذا قبل أن يصير انساناً سوياً مرّ بمراحل متعددة ، فاستغنى أولا عن السير على أربعة كبقية الحيوانات وصار يمشى على رجلين .

ثم شرع يمــرن يديه على القبض والمســك ، وهــكذا ظلّ القــرد ــ أبو البشر فى نظــرهم ــ يتطور جسمياً ، وينمى مواهبه وخبراته شــيئاً

فشيئاً حتى أصبح على الصورة النهائية التى يبدو بها الناس حالياً .

واختلاف الألوان في نظر أصحاب هذه الفكرة ما هو الا نتيجة لاختلاف ألوان القرود التى انحدرت منها شعوب العالم من أبيض وأسود وأصفر .

وأصحاب هذه الفكرة ينتمون الى مدرسة ذات اعتبار كبير فى العلوم والتاريخ وقد أسسها عالم الطبيعة داروين ، صاحب نظرية (النشوء والارتقاء) القائمة على أن جميع الكائنات الحية تتقاتل براً وبحراً وجواً والبقاء للأصلح ، والأصلح هو الذي يتغير دائماً ويتشكل ويتلون تبعاً للظروف المحيطة به سلباً وايجاباً .

وهنا تجدر الاشارة الى أن بعض تلاميذ هذه المدرسة لم يستحسنوا فكرة انتساب الأوربي الوسيم الىالقرود ، ومن ثم انشقوا علىزملائهم، ذاهبين الى القول بأن الزنوج فقط هم الذين ينتمون الى الغوريللا .

ثانياً : وثمة مدرسة ثانية لها نظرية فى أصل الحياة الكونية بما فيهـا الانسان فيقول علماء الجولوجيا الذين يدرسون التربة والصخور لتحديد عمـر الأرض ، وكذلك رجال الأنتروبولوجيـا الذين يدرسون أعمال الانسان القديم وآثاره ، يقولون أن عمر الـكرة الأرضية يقدر بحـوالى أربعة بلايين من السنين .

وأن الأرض بدأت أول ما بدأت كغازات سائلة كثيفة وملتهبـة ، أخـذت تبرد شيئاً فشيئاً حتى صـارت جامدة ومحاطة ببحـر من الهواء الذى نطلق عليه المناخ .

وقد شهد سطح الأرض منذ أن استقر على تلك الصـورة تغييرات جزرية دائمة وتحولات جـوية مستمرة ، فالثلوج تغطى مسـاحات شاسـعة من الـكرة الأرضية ، وعـوامل التعـرية من رياح وأمطـار ومياه جارية دائبـة العمل فى سـطح الأرض ، فأقاليم صحراوية تحصـل على مطر ، وأراض خصبة تصبح عقيمـة ، بحيرات تجف ،

وأنهار تغيُّر مجراها ، جــزر تتــلاشى وأخرى تظهر .

ما معنى هذا كله ؟ معناه فى نظر أصحاب هذه المدرسة أن الطبيعــة الــكامنة فِي باطن الأرض والمغيرة لسطحها هي نفس القوة التى تسببت فى انتشار العالم الى أقطار وقارات متباعدة تتخللها بحار وأنهار وجبال .

لأن أصحاب هذه المدرسة حينما طُولبوا بتفسير الحياة الكونية اكتفوا بالقول بأن معجزة الحياة فوق الأرض ابتدأت خلية ، فالحيوانات ذات الدم البارد كالضفادع ، ثم الحيوانات ذات الدم الحار كالأنعام .

وفى طور لاحق ظهر الانسان ... متى ، كيف ، ومن أين ؟؟

تلك معضلة عجز أنصــار هــذه الفــكرة عن حلها .

حقيقــة أنهم أتوا بتصنيفات عديدة لشــعوب العــالم تبعــاً للفروق الظــاهرة بينها فى اللون والملامح الجسدية كذكرهم مثلا الأجناس الآرية والمنغولية والسامية والزنجية الخ ، غير أنهم لم يوفقوا فى تحديد أصــل الانســان رغم ايمانهم بالأصــل المشــترك للبشر أجمعين على اختــلاف ألوانهم .

ولعل ايليا أبو ماضى فى أبياته الآتية كان لسان حال المدرسة :

جئت لا أعــلم من أيــ	ــن ولــكنى أتيت
ولقــد أبصــرت قــدا	مى طريقاً فمشيت
وسأبقى ســائراً ان	شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصر	ت طــــريقى ؟

لست أدري !!

هذا أهم ما قاله غير المؤمنين بالأديان السماوية بالنسبة الى أصل الانسان والحياة الكونية بصفة عامة وعلى المستوى الأكاديمي .

أما على المستوى الشعبي فثمة تفسيرات شعبية خرافية كثيرة لدى معظم شعوب الأرض فى ظاهرة اختلاف ألوان الناس .

فعند قبيلة صومالية اسمها آل عيسى اعتقاد شائع بأن كل الأمم والشعوب تنمتى اليها وتنحدر منها ، ولها فى ذلك نظرية ذات معيار أخلاقي تقول (كل الناس من آل عيسى « أى سود » غير أن الذنوب جعلت بعضهم أبيضاً ، أو أحمراً ، أو أصفراً) .

يستفاد مما تقدم بأن مسألة أصل الافريقيين السود مرتبطة بقضية أكبر منها وأعمّ ، وهي أصل البشر ككل على اختلاف ألوانهم وقاراتهم ، وأن المؤرخين ماعدا المسلمون وبعض أهل الكتاب لم يبتّوا فى الأمر ولم يتفقوا عليه .

وبناء عليه فان كل ما قاله الناس فى تحديد اصلهم وتوضيح السبب فى اختلاف ألوانهم لا يعدو كونه اجتهادات فردية ، لا ينبغى التقليل

من شأنها فى مجال العلوم والمعارف الانسانية ، ولكنها بعيدة عن الحقيقة فى هذا المضمار .

وأين الحقيقة اذن ؟

أقول : الحقيقة عند خالق كل شىء ..

وأوضحها الله لنا بطريقة تناسب أفهامنا ان كنا نعقل أو نعتبر .. فقد كرر الله تبارك وتعالى فى سور عديدة من القرآن الكريم بل وفى سورة واحدة الآية الكريمة «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» ثم أخبرنا سبحانه من هذا المنطلق ، منطلق علمه الواسع المحيط بكل شىء بأنه جلّ وعلا ، خلق الانسان خليفة له فى الأرض يستعمرها وينتفع بخيراتها ، ويعبد فيها الله الواحد الأحد ، وأن كل نفس رهينة بما كسبت يوم الحساب .

والناس جميعاً أغصان شجرة واحدة هي آدم وحواء . (هُوَ الَّذِى خلَقَكُم مِن نَّفس واحدَة وجَعَل مِنها زَوجها ليسكُنَ اِليها) « الأعراف ـ ١٨٩ » .

ومن هذا المنطلق لعلم الله الواسع المحيط بكل شيء عرفنا أيضاً حقيقة خلق الكون ، قال تعالى : (الَّذِى خَلَقَ السَّموات والأرض وما بينهُما في ستَّةِ أيَّام ثم استَوَى على العرشِ الرحمنُ فَسئَل بِهِ خبيراً) « الفرقان ـ ٥٩ » .

وأخيراً صار فى استطاعة المسلمين من هذا المنطلق الواسع لعلم الله ادراك حكمته تعالى فى اختلاف ألوان مخلوقاته . قال تعالى فى محكم كتابه : (ومِنَ النَّاسِ والدَّوابِ والأَنعَام مُختَلِف ألوَانُه كَذَلك انَّما يخشى الله مِن عِبَادِهِ العُلَماء) « فاطر ـ ٢٨ » .

فاختلاف ألوان مخلوقات الله من بشر وحيوانات وأشجار وحتى الجبال والأحجار انما هو آية ناطقة بقدرة الله وعظمته وداعية الى التأمل والتفكر فى خلق الله كوسيلة ضرورية للتوصل الى الايمان الكامل بقدرة الله وعظمته ، التى اقتضت تزويد كل نوع من أنواع مخلوقاته

الـكثيرة بألوان مختلفة دون أن يكسب اللـون لصاحبه ميزة على صنعة .

وهـذا هـو السبب فى أن المسلم لا يعـرف ولا يعترف بالتفرقة العنصرية التى هي التقليل من شأن الناس بسبب اللون ، لأنه يراها قبـل كل شيء انكاراً سافراً لآية من آيات الله الكبرى ونقصاً فى عقيدته ، وخطراً على دينه .

وعجبى من ضلال قوم يدعون فضل أحـد على أحد بحسب اللون دون أن يثبتوا مثل ذلك الفضل للبقرة الحمراء على الصفراء ، والناقة السوداء على البيضاء ، مع اعترافهم بأن الانسـان انمـا هو حيوان ناطق !!

٢ ـ أصل كلمة أفريقيا :

من المعلوم تاريخيـاً أن الحضـارة الفينيقيـة قامت على شاطىء فلسطين . ثم استولى الفينيقيون على تونس فى شـمال أفريقيـا ، متخـذين من

شاطئها لأساطيلهم التجارية .

والفينيقيون عاصروا الامبراطورية الرومانية واشتبكوا معها فى حــروب طويلة استمرت مائة سنة ، وانتهت بهزيمتهم وازالتهم من الوجــود عام ١٤٦ ق.م.

هؤلاء الفينيقيون كانت لهم سيطرة كاملة على تجارة البحر الأبيض ، وفضل عظيم فى الحضارة الانسانية . فعنهم أخذت اليونان الكتابة بالحروف بدل الصور والرسوم لأول مرة فى التاريخ .

ومن اليونان أخذت كل الشــعوب الأوروبيــة الأبجدية اللاتينية . المهم أن الفينيقيين أطلقوا على شعب تونس اسم « أفرا » (كلمة ذات معنى غــير معروف لنــا فى لغتهم) ومن بعــدهم أتى الرومانيون فأطلقوا كلمــة « أفرا » للدلالة على شعوب شمال أفريقيــا ، ثم امتد الاسم ليشمل القارة كلها .

٣ ـ شمال أفريقيا مصدر حضارة أفريقيا السوداء :

قبل حديثى عن لبّ هذا الموضوع أود أن أعيد الى ذهنك عدة حقائق تاريخية منها :

* أنه ليس هناك اجماع بين المؤرخين حول تعريف محدود لكلمة الحضارة ، بيد أن معظمهم يميل الى أنها تعنى « الحياة فى مدن » على أساس أن الناس حينما يجتمعون بأعداد هائلة فى مدينة واحدة يصبحون متحضرين ، أى متخصصين فى مهن مختلفة ، كل واحد يمارس عملا واحداً أو يتقنه ، فيكون لهم بذلك فلاحونجلدون ، وعمال مهرة ، وتجار نشيطون ، وموظفون اداريون وأصحاب حرف أخرى .

ثم أضافوا الى ذلك شرطاً آخر وهو أن ينتج بعض الناس فائضاً زراعياً يبيعونه لأصحاب المهن الأخرى مقابل حاجاتهم ، الأمر الذى سيؤدى الى تبادل تجاري داخلي وخارجي ،

واستبعدوا ازدهار الحضارة فى قطر ينتج كل فرد فيه قوته الضروري فقط .

* كان لدى شعوب أفريقيا السوداء حضارة عريقة وامبراطورياتقديمة يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الميلاد بكثير ، وثمة حقيقة أخرى وهي أن الأوربيين ما كانوا يعرفون عن أفريقيا السوداء قبل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي .

حقيقة أنه كانت لدى أوربا ملاحظات عامة عن أفريقيا سجلها بعض العرب والأوربيين في رحلاتهم الاستكشافية ، غير أن الاتصال كان مقطوعاً تماماً بين أوربا وأفريقيا السوداء قبل المرحلة المذكورة آنفاً .

والسؤال الموجه الى التاريخ ـ والحال هذه ـ هو : ما مصدر حضارة أفريقيا السوداء ؟

يتولى التاريخ الرد على هذا السؤال قائلا : ان الشمال كان مصدر حضارة أفريقيا السوداء

ونافذتها على العالم ، وفيما يلى ايضاح لهذه الحقيقة التاريخية :

ان العالم قد شهد ـ كما نعلم ـ فى المدة الألف وخمسمائة سنة السابقة للتاريخ الهجري الاسلامي ، ثلاثة امبراطوريات كبرى دفعت الحضارة الانسانية الى الأمام بخطوات واسعة .

ونعنى بها الامبراطورية الفارسية التى ورث عنها مهارة فائقة فى تعبيد الطرق وتشييد القصور ، وتراثاً قيِّماً من الحِكم والأمثال .

والامبراطورية اليونانية التى وضعت اللبنات الأولى للفكر الانساني السليم ، والأسس الأولية للعلوم والمعارف البشرية ، من الفلسفة والمنطق والهندسة والطب والفلك والجغرافيا . والامبراطورية الرومانية التى اشتهرت بالديمقراطية ووضع القوانين وتشجيع المهن المختلفة ، وتطوير الهندسة المدنية لبناء الجسور وشق القنوات وتشييد المسارح للتسلية والترفيه ،

واقامة نواد للاجتماعات العلمية والتجارية .

المهم أن هذه الامبراطوريات الثلاثة كلها غزت أقطار شمال أفريقيا واحتلتها سياسياً وثقافياً وعسكرياً ، ناقلة اليها ـ بطبيعة الحال ـ كلما كان لديها من علوم ومعارف ومهارات وعادات . وكانت شعوب شمال أفريقيا تنقل بدورها العلوم والمعارف الى بقية أجزاء القارة الأفريقية عبر الطريقين الآتيين :

الطريق الأول :

أن مصر تعرضت طوال تاريخها القديم والوسيط لغزوات أجنبية كثيرة وما احتلال الامبراطوريات السابقة الذكر لمصر سوى جزءاً من تلك الغزوات الكثيرة .

وكان من نتائج تلك الغزوات أنه كلما وقع غزو على مصر فرّ عدد غير قليل من أبنائها الى الصعيد المصري ، فالسودان قلب القارة على هذا الترتيب .

حدث هذا حتى فى أيام محمد على باشا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وذلك حينما أعلن حرباً على المماليك ، هاجرت مجموعات كبيرة منهم الى قلب القــارة ، حاملين معهم كل ما كان لدى مصر من فنون وعلوم وعادات . ولذا ذهب بعض المؤرخين الى القول بأن خسارة مصر فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة كانت مكسباً عظيماً لأفريقيا السوداء ، وقديماً قالوا : (خسائر قوم عند قوم فوائد) .

ويســتدل على صحة هذا الرأي بوجــود آثار تاريخية مصرية من عادات وعملات فضية وأوان فخارية في قلب القارة وشرقها .

الطريق الثاني :

الطريق الثاني هو من المغرب العربي الى غرب أفريقيا وذلك لأن المغرب العربي كان على اتصال دائم بحضــــارة العـــالم الخـــارجي ولا سيما الامبراطوريات الثلاثة التى سبقت الاشارة اليها

من جهة ، ولأن الصحراء الكبرى التى تتحكم فى جغرافية شمال أفريقيا كحاجز طبيعي ، لم تمنع الشعوب القاطنة على طرفي الصحراء من الاتصال طوال التاريخ لأسباب التجارة والحج ، والتعليم من جهة أخرى .

ويستدل على صحة هذه الفكرة بحقيقة أن معظم الامبراطوريات الأفريقية التى سجلها التاريخ ، قامت حول الحزام الخصيب من الأراضى الواقعة بين الصحراء وبين الغابات الكثيفة ، أى المنطقة المعروفة جغرافياً باسم سافانا (الحشائش الطويلة) ، وهي أقرب مناطق أفريقيا السوداء الى المغرب العربي ، هذا فى حين أن شعوب المناطق الساحلية فى غرب أفريقيا وجنوبها كانت بدائية متأخرة .

يضاف ذلك الى حقيقة أن الامبراطوريات الأفريقية نفسها كانت قائمة على أكتاف أبناء المغرب العربي كمستشارين ومعلمين واداريين .
وقصارى القول أن الحضارة وصلت الىأفريقيا

السوداء من شمال أفريقيا ، أى من المغرب العربي الى غرب أفريقيا عبر الصحراء . ومن مصر الى شرق القارة وقلبها عبر النيل . ويستثنى من هذه القاعدة العامة شـعوب سـواحل شرق أفريقيـا كالصومال وزنجبار على أساس أنه كانت لهـذه الشعوب علاقات دينية وتجارية قديمة ومباشرة مع الجزيرة العربية ، وبالتـالى لم تكن في حاجة الى التطلع الى شمال أفريقيا البعيد عنها .

الامبراطورية الأفريقية القديمة

ان ما نعرفه عن حضارة أفريقيا السوداء قليل جداً ، بالقياس الى ما نجهل عنه . والسبب أن شعوب المنطقة لم تكن تعرف الكتابة كشقيقاتها فى شمال أفريقيا .

ورغم هذا فان حضارة أفريقيا السوداء قديمة باجماع المؤرخين ، فرجال الأنتروبولوجيا مازالوا يعثرون كل يوم على آثار تاريخية من نحت ونقوش ورسوم وجماجم بشرية يرجع عهدها الى آلاف السنين قبل الميلاد .

وهناك مسألة يجب أخذها فى الاعتبار قبل الحديث عن هذه الامبراطوريات ، وهي أن الامبراطوريات الأفريقية التى سجلها .. كثيرة العدد ، مختلفة العصور ومتباعدة المواقع جغرافياً ، فبعضها قام قبل الميلاد ، وبعضها فى العصور الوسطى ، ولم يمض على بعضها الثالث

سوى عدة قرون .

وعلى هـذا الأساس فان الامبراطوريات التى سندرسها فى هذا الفصل أخذناها كنماذج على سبيل المثال لا الحصر .

أ ـ امبراطورية غانا :

تأسست هذه الامبراطورية فى القـرن الثالث الميلادي واستمرت الى القرن الحادي عشر .

وكانت عاصمتها «كومبى صالح» مدينة تجارية رائعة وذات شـوارع منسـقة ومحاطة بحدائق فيحـاء وأشجار مزروعة والتى حازت اعجـاب المؤرخين ، وما زالت آثارها موجودة وهي تنطق بعظمة أهلها ورقيهم الحضاري .

ومن أعظم ملوكها « تكمينين » الذى حكمها فى القـرن الثـامن الميلادي ، والذى بلغ من القوة والعظمة الى الحد أنه جمع حوله حـوالى مائتي ألف من المقـاتلين المسلمـين بسـيوف ورماح

حديدية حادة ، مما يدل على أن استعمال الحديد وصهره كان معروفاً لهم قبل ذلك بكثير .

ولأن « تكمينين » كان فى حاجة ماسة الى أموال طائلة للنهوض بنفقات جيشه الكبير ، فقد فرض ضرائب تصاعدية على الصادرات والواردات بطريقة لا تبعد كثيراً عن نظام الضرائب المتبع حالياً فى العالم .

وكان لهذا الملك العظيم مستشارون فى الشئون المختلفة، ومحافظون فى الأقاليم للتصريف فى أمور الناس نيابة عنه ، شأنه فى ذلك شأن أى امبراطور فى التاريخ القديم أو الحديث .

وقد ازدهرت الامبراطورية الغانية فى عصور ملوكها الأقوياء ، وكثرت المحصولات الزراعية ، وعاش الناس فى سلام ووئام .

ومما ساعد هذه الامبراطورية على معرفة شئون الادارة والحكم ، صلاتها الثقافية والتجارية المباشرة مع المغرب العربي .

غير أن الضعف أخذ يدب فى أوصال هذه الامبراطورية فى أوائل القرن الحادي عشر ، وكثرت القلاقل والفتن الداخلية ، وصارت عرضة لهجمات سكان الأقاليم الفقراء الذين استشاطوا غضباً لثراء أهل العاصمة .

وصادف هذا وجود « ابن ياسين » فى حوض نهر السنغال مع عدد غير قليل من أنصاره المسلمين المؤتمرين بأوامره . وابن ياسين هذا شخصية عجيبة فى تاريخ المغرب العربي وغرب أفريقيا على السواء . فقد أحضره أحد زعماء برابرة الصحراء ليُعَلِّمَ الناس تعاليم الاسلام فلما وجد « ابن ياسين » أن التقاليد التى يتبعها الناس تخالف الاسلام جملة وتفصيلا ، اعتزل الحياة العامة ، وأخذ يدعو الناس الى التعاليم الاسلامية السليمة ، وفى النهاية صار زعيماً دينياً وقائداً سياسياً ، وهو الذى أسس الطريقة المرابطية التى حكمت المغرب لمدة عشرين عاماً

المهم أن « ابن ياسين » أعلن حرباً دينية دموية

على غير المسلمين وحينما قوى ساعده وواتته الفرصة ، أرسل جيشاً قوياً بقيادة أبو بكر ـ أحد الزعماء المرابطية ـ الذى تمكن بسهولة من هزيمة جيش امبراطورية غانا ، ودخول عاصمتها « كمبى صالح » وأسر آخر ملوك المملكة الغانية عام ١٠٧٦م .

وكان ذلك نهاية للامبراطورية الغانية التى أصبحت فيما بعد جزءاً من الامبراطورية التى قامت على أنقاضها .

ب ـ أمبراطورية مالى :

حينما استولى جيش « ابن ياسين » المرابطي على عاصمة الامبراطورية الغانية دبت الفوضى فى كل الأقاليم لعدم وجود سلطة مركزية تربط الأقاليم بعضها بالبعض .

وأعلن رجال عديدون أنفسهم ملوكاً على الامبراطورية المنهارة ، ولكنهم جميعاً فشلوا فى تحقيق أطماعهم سوى (سونديات الأعرج) الذى

استولى أولا على مدينة (كنكبا) معلناً نفسه ملكاً على المنطقة ، ثم أخذ يضم الى مدينته كل المدن المجـاورة له .. مدينة تلو الأخرى ، حتى كوّن امبراطورية «مالى» ، ناقلا عاصمتها الى«نماص» على نهر النيجر . ولمـا مات «سونديات» خلفه فى الحكم رجل يعـد من أعظم رجالات الاسـلام فى غرب أفريقيـا ، ألا وهو « منساموس المسلم » ، الذى تولى الحكم فى منتصف القرن الثالث عشر ، وعمل جاهداً على توسيع مساحة امبراطوريته الى جميع الجهات .

وفى عصره صـار « مالى » مـن أعظـم الامبراطوريات فى العـالم ، كمـا كان الـدين الاسـلامي دين الامبراطورية الرسمي . وكانت عاصمته تستقبل أفواجاً هائلة من أبنـاء شمال أفريقيـا الغربي كتجـار ومستشارين ومعلمين وعلماء .

و « منساموس » هذا له قصـة حج ظريفة .. فقد روى أنه سافر الى مكة المكرمة لأداء فريضة

الحج ، ذهب ومعه آلاف من النبلاء والجنود والأعيان ، تصاحبهم ثمانون من الابل محملة بذهب تبلغ قيمته ملايين من الجنيهات .

وعندما كان يمر « بالقاهرة » وزع الذهب كله على العلماء والفقراء المصريين اعجاباً منه بعظمة مصر الدينية والحضارية . وظلت زيارته تذكر بالخير فى مصر مدة طويلة وبعد عودته من الحج ، قضى « موس » معظم حياته الى جانب واجباته كملك ، داعيأ الى الاسلام ، عاملا على نشره ومدافعاً عنه بلسانه وسلاحه معاً .

وفى عهده وصف شعب مالى بأنه أذكى وأكثر شعوب غرب السودان حضارة واحتراماً . ومن المعلوم أن اسم السودان كان يشمل في التاريخ القديم والوسيط كل بلدان غرب ووسط أفريقيا ، بالاضافة الى السودان نفسها .

وبعد وفاة « منساموس » تولى الحكم ملوك ضعفاء ، لم يستطيعوا السيطرة على تلك المساحات

الشاسعة من أراضي الامبراطورية . فانفصلت بعض الأقاليم معلنة استقلالها عن الامبراطورية . وأسوأ من ذلك أن بعض المقاطعات أخذت تهاجم العاصمة ، وتنهب خيراتها دون أن تلقى عقاباً رادعاً من قِبَل الملوك لضعفهم وقلة حيلتهم من جهة ، ولأن الخلافات كانت ذات طابع قبلى اقليمي غير مستعد لسماع صوت المنطق ، والمفاوضات السياسية من جهة أخرى .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك الظروف القاسية سقوط امبراطورية مالى فى منتصف القرن السادس عشر ..

وفى ختام الحديث عن امبراطورية «مالى» ، ينبغي أن نذكر حقيقة تاريقية وهي : أن وجود تجار ومستشارين ومعلمين من المغرب العربي فى امبراطورية مالى معناه أن هذه الامبراطورية كانت على علم تام بحضارة شمال أفريقيا ، وأن آثار تلك الحضارة من لغة وعادات حتى الآن فى تلك المنطقة .

جـ ـ الامبراطورية الحبشية :

منذ عصور غابرة قطنت فى الحبشة أقوام شتى، نزحت اليها من كل أجزاء القــارة ومن آســيا الصغرى ، واستقر بهــا المطاف فى أثيوبيا حيث طابت لها الحياة وسط مروج الحبشـــة الخضراء على جوانب جبال عالية ذات أنهار جارية وأمطار غزيرة وظلال وارفة ومناخ دافيء معتدل .

وكلمــة الحبشة نفســها تعنى الخليط الذى يجمعه أصل مشترك ديناً كان أو لغة أو لوناً أو جنساً .

ويرجع عهد الامبراطورية الحبشية الى ســنة ٧٠٠ق.م. وكانت عاصمتهم (أكسوم) التى قال عنها تاجــر يوناني (كل العــاج من بلاد أعالى النيل) .

ومن أعظــم ملــوك أكســوم « أزانا » الذى حكمهــا ٣٠٠ـ٣٣٠ ق.م ، وبفضله قوي شــأن الامبراطورية ، وبأمره بُنيت تماثيــل عاليــة وموجودة حتى الآن فى أكسوم القديمة .

وفى عهده أيضاً دخلت الديانة المسيحية الى الحبشة ، وتتلخص قصة دخول المسيحية الى الحبشة فى أنه فى عهد سيطرة الامبراطورية الرومانية على منطقة الشرق الأوسط ظهر نبي الله المسيح ابن مريم عليه السلام من بين بني اسرائيل وكان من ضمن ما دعا اليه ابن مريم عليه السلام ، التوحيد ، خلق روح المحبة فوق الأرض عن طريق المساواة والتسامح والتغاضى عن أخطاء الآخرين وعيوبهم .

فرأى زعماء بني اسرائيل أن التعاليم المسيحية انما هي تقويض لأركان سيادتهم القائمة على الظلم والاستغلال والخيانة ، ومن ثم أحضروا نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام أمام والى الامبراطورية الرومانية فى فلسطين ، متهمين اياه بالتآمر ضد الامبراطورية والانفصال بفلسطين ليكون ملكاً عليها ، وهناك تم اعدامه صلباً فى نظر غير المسلمين . وعند المسلمين أن المسيح انتقل الى السماء بأمر ربه وأن ما قيل كان صورة

مشبهة به . وذلك استناداً الى قوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم » .

وابتداء من حادثة المسيح هذه ، ظل المسيحيون يُقتلون ويُعذبون فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ، لأن ملوك الامبراطورية كانوا يطلبون العبادة لأنفسهم تبعاً للتقاليد الرومانية، واستمر حال المسيحية على هذا المنوال حتى اعتنقها الامبراطور غسطنطين ، وجعلها دين الامبراطورية الرسمي .

وكانت مصر تحت احتلال الامبراطورية الرومانية آنذاك ، ومن جهة أخرى كانت الصلات التجارية والثقافية مستمرة بين مصر والحبشة ومن خلال تلك الصلات سمعت بعثة تبشيرية مسيحية فى الاسكندرية أخبار الامبراطورية الحبشية ، فسارعت بارسال رجال الدين اليها . ومن يومها ، أى فى مطلع القرن الرابع الميلادي صارت المسيحية دين الامبراطورية الحبشية ابتداء من عهد الملك « أزانا » عام ٣٢٥م .

نعود الى موضوع الامبراطورية الحبشية فنقول : ان هذه الامبراطورية فى تاريخها الطويل حكمها ملوك أقوياء وآخرون ضعفاء ، وشهدت قرون انحطاط وتأخر وعصور تقدم وازدهار، وواجهت مشاكل متعددة الأسباب والنتائج .

وكل ذلك واقع فى يوميات أحداث هذا البلد والموجودة فى الكتب التاريخية المخصصة لهذا البلد .

وما أردت كتابى هذا سجلا ليوميات أحداث قطر معين من أقطار القارة الأفريقية .

ومن ثم فان الاكتفاء ببعض جوانب تاريخ الامبراطورية الحبشية ضرورة فرضها الهدف والحيز المعلن عنهما فى مقدمة الكتاب .

وعلى كل حال ، فان فى تاريخ الامبراطورية الحبشية ظاهرتين فريدتين تستحقان الوقوف والدراسة وهما :

أولا : ان الحبشة هي البلد الأفريقي الوحيد الذىاحتفظ باستقلاله طوال التاريخ ولم يخضع

لسيطرة أجنبية ما عـدا خمس سنوات احتلتهـا ايطاليـا على أكتـاف جنـود صوماليين فى عهـد موسوليني (١٩٣٩ـ١٩٤٥م) .

ويرجع الفضل الى جانب مهارة ملوكها ، يرجع الى كون الحبشة منطقة جبلية ذات هضبات عالية ومحـاطة بأحـزمة جبلية تتخللها سهول شبيهة بخطوط دفاعية متتالية فطوبوغرافيـة المنطقـة هي التى ساعدت الأحباش على الدفاع عن وطنهم ضد الغزاة ، ومكنتهم من هـزيمة ايطـاليا فى موقعة «عدوة» الشهيرة عام ١٨٩٦م .

كما أنهـا ساعدتهم أيضـأ على الحاق الهزيمة بالقوات المصرية فى معركتين متلاحقتين فى عامين متتاليين (١٨٧٥ـ١٨٧٦ م) . وذلك فى عهـد اسماعيـل باشـا الذى كان يرغب فى اقامـة امبراطورية أفريقية عظمى تحت زعامته ، على ما هو معروف ومدون فى تاريخ مصر الحديث .

ثانياً : أن الامبراطورية اشـتركت مع أوربا فى تجزئة القارة الأفريقية ووسعت حدودها الى

جميع الجهات . هذه حقيقة مسجلة فى كل الكتب التاريخية التى تحدثت عن المنطقة اجمالا واسهاباً .

ولقد كان توسع الحبشة على الصومال كبيراً الى الحد أنها أى الحبشة أنكرت فى المؤتمرات الدولية وجود الصومال كأمة ذات مقومات قومية كاملة بل أكثر من ذلك أنها طالبت بضم الصومال كلها اليها .

وحدث توسع الامبراطورية الحبشية على الصومال فى مراحل متباعدة من الزمن . ففى المرحلة الأولى (١٤٣٤ـ١٤٦٧ م) تمكنت الامبراطورية الحبشية من ضم مساحات شاسعة من الأراضى الصومالية الى شرق أثيوبيا . على أن توسعها لم يتم فى سكوت وسلام . اذ استجمع الصوماليون المسلمون قواهم، وأرسلوا مدفوعين بروح وطنية ودينية متأججة جيشاً قوياً بقيادة البطل المجاهد أحمد الأعسر ، انطلق جيش المجاهدين الصوماليين من عاصمتهم هرر . وفى عام ١٥٢٩م تمت المواجهة بين القوتين في موقعة

كُتِبَ النصر فيها للصوماليين المسلمين .

فَاستنجد «لبنادنغل» ، ملك الحبشة آنذاك ، بالبرتغال ، مستغلا عطف أوروبا على الحبشة التى ما زالوا يعتبرونها جزيرة مسيحية وسط بحر اسلامي متلاطم الأمواج . وهذا نغم تحسن الحبشة العزف عليه دائماً لكسب تأييد أوروبا المسيحية .

المهم لَبَّت البرتغال نداء الحبشة ، وأرسلت لها على عجل قوة كبيرة ذات أسلحة عصرية بقيادة كريستوفر داغاما .

ولتفوق أسلحتها انتصرت القوات الحبشية البرتغالية المشتركة على القوات الصومالية فى معركة دموية حاسمة استشهد فيها البطل الصومالى الشيخ أحمد الأعسر . ومن يومها والحبشة تستقطع الأراضى الصومالية . مديريات فأقاليم بأكملها ، معتمدة فى ذلك على مساعدات الدول المسيحية ، ومستغلة ظروف السُبات العميق الذى أخلدت اليه الشعوب العربية

والاسلامية بوجه عام .

غير أن التوسع الاثيوبي على الصومال بلغ ذروته فى عام ١٩٥٤م اذ فيه ضمت بريطانيا الى الحبشة الجزء الغربي من الصومال الذى كان تحت الاستعمار البريطاني .

وفى ختام الكلمة عن الامبراطورية الحبشية أقول :

انك تعلم بلا شك أن الامبراطورية الأثيوبية قد سقطت مع آخر أباطرتها «هيلاسلاسى» فى عام ١٩٧٤م بانقلاب عسكري يحكم الحبشة اليوم تحت حماية عسكرية روسية . وتعلم أيضاً أن جبهة قومية وطنية قد تشكلت فى الصومال الغربي المحتل من الحبشة وأن القتال مازال دائراً فى تلك المنطقة حتى اليوم .

والغريب فى الأمر أنه كلما طالبت تلك الجبهة بحق شعبها فى تقرير المصير والاستقلال ، أقامت الحبشة الدنيا وأقعدتها ، متهمة الصوماليين بتعصب ديني ونوايا توسعية !!

الفصل الثاني

دور أفريقيا السوداء في الحضارة العالمية

أما وقد رأينا بعض الأمبراطوريات الأفريقية السوداء ، فمن المستحسن أن نتلمس مساهمة الشعوب الأفريقية السوداء فى الحضارة العالمية فنقول :

كان للشعوب الأفريقية السوداء عاداتها الأصيلة ، وتراثها القيم ، وفلسفتها فى الحياة ونظرتها الى الأمور .

كل ذلك فى ظل امبراطورياتها العريقة التى حققت لشعوبها حياة متحضرة آمنة ، وعمراناً اقتصادياً واجتماعياً . وكان شعاع الحضارة والمعرفة ينفذ اليها من شقيقاتها فى شمال أفريقيا ، كما رأينا فى فصل « مصادر الحضارة فى أفريقيا السوداء » .

وهذا معناه أن أفريقيا السوداء كانت فى طور التلقى والتأثر والهضم ، وقبل أن تصل الى طور

الخلق والابداع ابتُلِيَت بالاستعمار الأوربي .

ولم تكن أفريقيا قط قارة مظلمة تسودها الهمجية والوحشية ، كما يزعم ويروج بعض كُتَّاب أوربا للتستر على الجرائم البشعة التى ارتكبوها فى حق الأفريقيين من تجزئة القارة فيما بينهم ، ونهب ثرواتها جهراً وقهراً ، وبيع شعوبها عبيداً فى الأسواق العالمية كبضاعة مشروعة .

فضل الاسلام والحضارة العربية على أفريقيا السوداء :

ينبغى فى بادىء ذى البدء اثبات عدة حقائق متعلقة بهذا الموضوع منها أن الاسلام دخل الى أفريقيا السوداء عن نفس الطريق الذى دخلت اليها منه الحضارة أى من شمال أفريقيا عبر الصحراء الكبرى وعبر النيل ، على النحو الذى عرفناه في الفصل الخاص بمصدر حضارة أفريقيا السوداء .

ومنهـا أيضاً أن الاسـلام انتشر على نطـاق واسع فى أفريقيا السوداء فى القرن الحادي عشر الميلادي .

ومنهـا أخـيراً أنه وصل اليها بقوة الحجـة والمنطق ، ليس بقـوة السيف . فلم تكن هنـاك الشرق الأوسط وأسبانيا .

حقيقة أن حروباً دموية دينية وقعت بين قبائل أفريقية عديدة ، وأن الاسلام تسبب فى سقوط أمبراطوريات أفريقيـا كما رأينـا فى الفصـل السابق .

ولكن الفكرة المتفق عليهـا تاريخيـاً هي أن الاسـلام انتشر فى أفريقيا السـوداء بالتى هي أحسن أى الاقناع بالحجة .

وكان الاسـلام مصاحبـاً للاتصالات البشرية التجارية والثقافية بين أقطـار القـارة ، ومرة أخرى يستثنى من هذه القاعدة العـامة لأفريقيا السوداء الصـومال التى دخلها الاسلام في أواخر

القرن الأول الهجري مع السادة العلويين الذين هربوا من بطش الأمويين .

هؤلاء العلويون عبروا البحر الأحمر بقواربهم الى الصومال حيث وجدوا تربة خصبة لحياتهم المعيشية والدينية لعروبة الصوماليين ، وشبههم الشديد بأهل الجزيرة العربية فى الكرم والمروءة ، فى الشهامة والشجاعة ، وفى العادات والملامح الجسدية .

وعلى العموم ، فان للاسلام فضلا عظيماً على أفريقيا السوداء . وقد كتب عنه مؤرخون كثيرون فى مجلدات ضخمة ولا يسعنا الحيز لأكثر من الجوانب الثلاثة التالية من ذلك الفضل العظيم الذى شهد به أعداء الاسلام :

أولا : الايمان بالله . قبل وصول الاسلام الى هناك ، لم تكن الشعوب السوداء فى هذه القارة على دين فبعض الناس كانوا يعبدون الأصنام ، وبعضهم عبدوا الشمس والقمر ، ومنهم من

عاش لا يعرف إلاهاً ولا ديناً . ثم جاءهم الاسلام، فوحدهم فى العقيدة ، وأحدث فيهم نفس الثورة السياسية والاجتماعية والعقلية والدينية ، التى أحدثها فى الجزيرة العربية بعد البعثة النبوية . فشعروا بالأخوة الاسلامية ذات اله واحد ، ودين واحد ، وقبلة واحدة ومن ثم ارتفعوا من مستوى الحروب القبلية التى أنهكتهم الى حد ما ، وتحرروا من آثار العصبيات الجاهلية .

وأي فضل أكبر أو أعظم من العقيدة الاسلامية وما تكفله لأصحابها من الطمأنينة والأمن والسعادة .

ثانياً : المعرفة ، كما رأينا فى الفصل السابق، أن كل ملوك أمبراطوريات غرب أفريقيا استحضروا من شمال أفريقيا رجالا متعلمين ، للاستعانة بهم كمستشارين ومدرسين . وهؤلاء العلماء أدوا لأفريقيا السوداء خدمات جليلة منها : أنهم ساعدوا الملوك فى شئون الحكم والادارة ووضع القوانين والمحاكم للفصل فى

قضايا النـاس . وهذه كما ترى خدمات أقل ما يوصف بها أنها جليلة حقاً . ومنها أيضاً أنهم علّموا الناس القراءة والكتابة وتتلمذ عليهم عدد كبير من أبناء أفريقيا السوداء الذين ساهموا بدورهم فى نشر الثقافة والمعرفة فى كل أجزاء القارة .

وواضح من هذا الكلام أن عرب شمال أفريقيا أدخلوا الى أفريقيا السوداء نور الاسلام وتعاليمه وحضارة العرب وتقدمها العلماني والمادي .

بقي أن نفهم أنه لولا وحدة العقيدة بين شمال أفريقيا وغربها لما استعان ملوك غرب أفريقيا بعلماء شمال أفريقيا .

ثالثاً : تقديم أفريقيا الى العالم . قبل الاسلام لم يكن العالم يعرف شيئاً ذا بال عن أفريقيا السوداء ، ولكن حينما دخل الاسلام الى القارة قدّم العالم الخارجي اليها ، وقدّمها الى العالم الخارجي .

وتولد عن هذا التقديم أن تعرف العالم الخارجي على أفريقيا السوداء بكل خيراتها من شعوب وحيوانات وأشجار وأنهار ، ووديان وجبال .

وكان ذلك تمهيداً للاتصالات التى حدثت فيما بعد بين القارات الأفريقية والأوربية والأسيوية .

من رجالات الاسلام في أفريقيا السوداء

ان الرجال الذين أفنوا حياتهم فى خدمة الاسلام فى هذه القارة وحملوا لواءه رغم خطورة الظروف المعاكسة ، معرضين أنفسهم للموت فى كل لحظة من قِبَل جهلة وثنيين حريصين على الأصنام ، وبعثات تبشيرية متآمرة ، ووحوش كاسرة فى أحراش أفريقيا وأدغالها ، نقول أن هؤلاء الرجال كثيرون حقاً (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) « الأحزاب ــ ٢٣ » .

فتَحية متواضعة لجهودهم المشكورة ، جزاهم الله عنّا خيراً ، نتحدث فيما يلى عن رجلين منهم على سبيل المثال لا الحصر .

١ ــ عثمان دان فوديا :

يُعدّ عثمان هذا بطلا من أعظم أبطال الاسلام

فى غرب أفريقيـا وهو ينتمى الى قبيلة تعـرف تاريخياً باسم (الفلانيين) .

وكان الفلانيون فى أول الأمر رحلا يتنقـلون بين نهري السنغال والنيجر ، سعياً وراء المطر ، وبحثاً عن الـكلأ والمرعى لمواشـيهم التى كانوا يعتمدون عليها فى حياتهم . وانتهى المطـاف الى الاقامة على ضفاف نهـر نيجـر وسط قبيـلة هَوسَا .

وكان الفلانيون متفوقين فى العلوم العربيـة والاسلامية لاختلاطهم بعرب من أصل البربر فى شمال أفريقيا . وقد أعطاهم هذا التفوق قدرة على احتكار وظائف التدريس والادارة والقضاء والاستشارية . وسمحت لهم تلك المناصب نشر الدين الاسلامي وعلى نطاق واسع في نيجيريا .

كان بطلنا عثمان قائدأ لتلك الجماعة المسلمة التى لها الفضل الأكبر فى نشر الاسلام فى منطقة غرب أفريقيا كلها .

وقد اشتغل صاحبنـــا أولا فى التدريس حيث اكتسب شـــهرة واسعة وسمعة طيبة بين ســـكان المنطقة ثم اتجه الى السياسة متهماً نظام الحـكم بالانحراف والفساد . وما لبث أن التف حـولـه آلاف من المسلمين والساخطين على الحكم .

ولما قوي ساعده ، أعلنهــا حــرباً مقدسة على ملوك هَوسَا ، واشتبك معهم فى حــروب كثيرة كُتِب له الفوز فيها ، وتوالت انتصاراته حتى دخـل عاصمتهم غــوبر ، وقَتَلَ آخر ملوكهم وأتباعه فى عام ١٨٠٨م .

ثم اعتزل عثمان دان فوديا الســياسة ومات سنة ١٨١٧م . معتكفاً على الكتابة والقراءة .

ويرجع الفضل فِي انتشـــار الاسلام فى نيجيريا وفى غرب أفريقيا بصفة عامة الى المجــاهد الكبير عثمان فوديا وجماعته ، باسم (جهاد الفلانيين) .

٢ ــ السيد محمد عبد الله حسن :

يُعَدّ السيد محمد بطلا من أبطال الاسلام فى

شرق أفريقيا ، وشخصية عظيمة وذات أثر كبير في تاريخ الصومال بصفة خاصة . وأنت تجده فى التاريخ الذى كتبه الأوربيون عن شرق أفريقيا تجده تحت عنوان (محمد المجنون) لكفاحه المستميت ضدهم وكراهيتهم الشديدة له .

وتتلخص قصة حياة السيد محمد فى أنه وُلِدَ عام ١٨٥٦م فى الاقليم الشمالي من الجمهورية الصومالية .

ونشأ نشأة دينية اذ حفظ القرآن وهو مايزال صبياً ، ثم تتلمذ على رجال الدين ، وحضر مجالس العلماء حيث تعلم قدراً لا بأس به من العلوم الاسلامية والعربية ، وفى عام ١٨٩٢م سافر الى مكة المكرمة لطلب العلم وأداء فريضة الحج . ومكث بها ثلاث سنوات تفقه فيها فى العلوم الاسلامية والعربية ، كما تَعرّف على المذاهب السياسة التى كانت تجتاح العالم الاسلامي لمواجهة الاستعمار الأوربي ، المتفوق علمياً وعسكرياً والذى أخذ يُحكِم سيطرته

الكاملة على شعوب أفريقيا وآسيا . وعاد السيد محمد الى الوطن مُحَمَّلا بتلك الأفكار سنة ١٨٩٥م .

وعلى الفور فوجىء الشيخ بأمرين غيَّرا مجرى حياته ، وتركا آثاراً عميقة على نفسيته :

أولهما : أن السلطات البريطانية التى كانت تحكم الجزء الشمالي من الصومال طالبته بدفع ضريبة الرأس المفروضة على كل مواطن ، فاقشعر بدنه ، وأحس بمرارة شديدة ، معتبراً ذلك طعنة قوية فى صميم قوميته وانسانيته ، اذ كيف يتسنى له دفع ضريبة على أرضه ؟..

وثانيهما : أنه لاحظ أن هناك بعثات تبشيرية كثيرة فى الوطن ، وهي تحاول بكل السبل والوسائل نشر المسيحية فى الصومال .

وذات يوم سأل السيد محمد مجموعة من الأطفال الصوماليين فى مدرسة تبشيرية سألهم قائلا : « أنتم أولا مَن يا أبنائى ؟ » فردوا عليه

« أولاد الأب يا عمنّا » قاصدين الراهبَ الذى يطلق عليه الأب فى الديانة المسيحية .

عندئذ فتح السيد محمد عينيه على فاجعة بلده وأيقن أن الكارثة محققة (لا وطن ولا دين) .

ثم توصل الى حقيقة أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لانقاذ الوطن والدين .

فقام فى المدن فى أول الأمر داعياً الى الدفاع عن الوطن والدين ، ومبصراً الناس بالخطر الداهم عليهم . ولما لم يجديه الجدل الديني والمناقشات المنطقية ، قرر الانتقال الى البادية للقيام بالعمل الحربي . فكَونَ أول جيش من الدراويش (اسمه جيشه فى عام ١٨٩٩م) .

وفى نفس هذا العام أدرك الانكليز خطورة هذا الرجل فكراً وعملا ، وأرسلوا اليه حملة عسكرية لاطفاء شعلة الحرية والايمان التى يحملها السيد محمد . والتقى الجيشان فى معركة

دموية انتهت بهزيمة القوات الانكليزية واستيلاء الدراويش على أسلحتها .

غير أن الرصاصة التى أطلقت فى تلك السنة (١٨٩٩م) ، استمرت واحداً وعشرين عاماً .

خصائص حروب السيد محمد عبد الله :

لم تكن حروب السـيد محمد على نمط حرب العصـابات ، ولم تكن محصورة فى اقليم بذاته من الوطن . بل كانت حـروباً عامة شملت كل أنحاء الصومال فكراً وعملا كما ارتد لهيبها الى بقية أقطار شرق أفريقيا .

وذلك لأن السيد محمد ما أن أعلنهـا حـرباً مقدسة دينية ووطنية ضـارية حتى التف حوله مئات الآلاف من الصوماليين المقاتلين الشجعان . مما مكّنه من خـوض معـارك دموية فى ثـلاث جبهات متباعدة مع ثلاث قوات مختلفة الجنسية ، أى مـع الانكليز فى الشمال ، ومـع الحبشـة فى الغرب وايطاليا فى الجنوب .

وقد بلغ السيد محمد من القوة والتنظيم الى حدّ أنه استطاع أن يصمد فى الجبهات الثلاثة احدى وعشرين عاماً ، وبل أن ينتصر على تلك الجيوش الثلاثة فى معظم المواقع الحربية ، مبيداً فيها جنوداً وقادة من جيش بريطانيا خَلّدهم التاريخ الانجليزي .

ثم أيقن الانكليز أن الانتصار على الدروايش فى حرب برية أمر محال ، فلجأوا الى سلاحهم الجوي الذى ظل يقصف مراكز جيش الدراويش حتى دمر فيها كل نفس ونفيس . وكان ذلك نهاية مؤسفة لجيش المجاهد البطل السيد محمد عبد الله فى عام ١٩٢١م .

والتاريخ يذكر أن الصومال كانت أول بلد أفريقي يستخدم ضدّه سلاح الطيران لاخضاعه .

مآثره في الصومال :

اذا سألت شخصاًصومالياً عن فلاسفة الصومال وشعرائها وحكمائها ودعاة استقلالها .

فانه سوف يشير ، وبلا أدنى تردد الى السيد محمد عبد الله . لأنه ـ أى السيد محمد ـ يأتى فى المقدمة فى تلك الميادين كلّها ، وله الصدارة فى كل هذه الصفات فى نظر الصوماليين .

ذلك لأنه الى جانب دفاعه المُشرف عن الوطن والدين ، ترك تراثاً ثقافياً عظيم الأثر والتأثير على الصوماليين ، وملاحم شعرية قيمة تعد حتى الآن مثل الصومال العليا فى الدينيات والوطنيات والأخلاقيات .

واذا كان تاريخ كل أمة عبارة عن حلقات متصلة من الكفاح ، كل حلقة منها ناتجة عن التى قبلها ، ومؤدية بالضرورة الى التى بعدها .. اذا كان هذا صحيحاً .. فان الصوماليين يرون أن حركة المطالبة بالاستقلال التى نشأت فى الصومال عام ١٩٤٣م ، انما هي نتيجة لحركة السيد محمد عبد الله ، أى ترتبت عليها واستمدت منها مبادئها وقوتها الروحية والفكرية .

الفصل الثالث

افريقيـــــا
من القرن ١٥ الى القرن ١٩

ستكون دراستنا لأفريقيا السوداء ابتداء من القرن الخامس عشر من خلال علاقتها بأوربا .. وذلك لأهميـــة أحـــداث العـــلاقات الأفريقيـــة الأوربية ، وأثرها على حيـــاة الشعوب الأفريقية فنقول :

قبل مجيء الأوربي كان لأفريقيا امبراطوريات عريقة وأنظمـــة للحكم ، وطرق للمعـــاملات بين الناس ، واكتفاء ذاتي فى المعيشة .

وكانت حياتهم بسيطة تمتاز بالهدوء والأمن وراحة البال ، بيد أن القارة كانت معزولة عن الحضارة التى كانت تفور فى أوربا آنذاك .. الا ّ بصيصاً ظل ينفذ اليها من شمال أفريقيـــا ، ثم وصل الأوربي الى القارة ، واستُقبِلَ بدهشـــة واستغراب مصحوبين بالشـــك ّ والخـــوف . وتم

التفاهم بلغة الأصابع ، واتفق على أن يمكث ضيفاً فى فترة وجيزة يتبادل خلالها المنفعة مع الأفريقيين .

كان ذلك بداية لاتصال أوربا بأفريقيا السوداء فى منتصف القرن الخامس عشر .

وتجدر الاشارة الى أن أوربا كانت على جهل تام بأفريقيا السوداء قبل هذا التاريخ ، ولكنها استطاعت الكشف عن القارة الأفريقية في منتصف القرن الخامس عشر لسببين رئيسيين :

أولهما : أن أوربا كانت تعيش فى عصر القوميات ، وكانت كل دولة منها تعمل على تحقيق انجازات عظيمة لشعبها عن طريق التجارة الخارجية والبحث عن خيرات فى بقاع مجهولة من العالم ، لا سيما وأن الدول الأوربية كانت قد قطعت شوطاً فى بناء اقتصادياتها وقوتها العسكرية .

وثانيهما : أن الدول الأوربية كانت قد

تمكنت من ادخال تحسينات جذرية على بناء سفنها وجعلها قادرة على التمخر فى البحار تحت كل الظروف الجوّية المماكسة وكان هدف الأوربيين فى أول الأمر محصوراً فى العثور على منفذ الى التجارة مع الشرق البعيد ، تلك التجارة كانت محتكرة للعالم الاسلامي قبل ذلك .

غير أن أوربا فى سبيل بحثها عن الطريق الى الشرق اصطدمت بجبلين من ذهب بشّراها بالخير، وغيّرا كل مخططاتها ، وأعنى بها أفريقيا وأمريكا . وكانت البرتغال طليعة الدول الأوربية فى هذا المجال ، اذ كان فى خدماتها فاسكو داغاما مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٤١م .

وعلى العموم ، فقد صار فى الامكان استخلاص أربع ملاحظات تاريخية هامة من العلاقات الأفريقية الأوربية خلال القرون الأربعة أي من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر .

أولا : لم تكن العلاقات الأفريقيـــة الأوربية رسمية ، أى على مستوى الحـكومات ، خلال تلك المرحلة الطويلة (١٤٤١ــ١٨٠٠م) .

وبالتالى لم تكن لتلك العلاقاتأهمية عسكرية أو اقتصـــادية أو سياسية ، ماعدا ميدان تجارة العبيد .

وكانت مسئولية التعامل مع الأفريقيين ملقاة عــلى عاتــق الشركات التجــارية التى حصــرت نشاطهــا أولا فى محطــات التمــوين والمراكــز التجــارية على المنــاطق الســاحلية ، ثم أخذت توسع دائرة نفــوذها الاقتصــادي فى المنــاطق المتاخمة لشواطىء البحــار . وهــذه الشركات بعملها هذا .. هي التى مهّدت الطريق للاحتلال الاستعماري فى المــراحل التــالية فى العــلاقات الأوربيــة الأفريقيــة . وقــد اكتفت أوربا فى علاقتها بأفريقيــا قبــل القــرن التــاسع عشر بالرحلات التجارية المثلثة الشــكل . بمعنى أن سفنها كانت تصل الى آفريقيا محملة ببضــائع

يرغب فيها الأفريقيون ، ثم تغادر أفريقيا محملة بالعبيد الى الأمريكتين . ومن أمريكا تتجه صوب أوربا حاملة القطن والسكر والتبغ والذهب وغيرها من السلع المربحة فى أوربا .

ثانياً : بما أن نشاط الأوربيين كان مقصوراً على شواطىء أفريقيا وموانيها طوال القرون الأربعة السابقة للقرن التاسع عشر ، فان أهل السواحل تحضروا الى حد ما .. قبل غيرهم ، وتطبعوا بطابع الحياة الأوربية ، وافتتحوا لأنفسهم أسواقاً تجارية محلية ودكاكين ، كما صاروا يلعبون دور الوسيط بين الشركات الأجنبية وبين بقية الشعوب المقيمة فى الأماكن النائية عن الشواطىء .

واكتسبوا من وراء ذلك تفتحاً حضارياً ، ووعياً سياسياً ، وفكرة واسعة عن العالم الخارجي. وما زالت لهم تلك الميزة حتى الآن بالقياس الى أهل المدن الداخلية البعيدة عن السواحل والموانى .

ثالثاً : الملاحظة الثالثة حول العلاقات الأفريقية والأوربية قبل القرن التاسع عشر .. وهي أن أحداً من الأوربيين لم يتوغل داخل أفريقيا ليقدم للقارة الأوربية صورة واضحة عن أسرار أفريقيا ودخائلها، أنهارها وبحيراتها، وجبالها ووديانها ، غاباتها وشعوبها .

وقد فسر السبب فى جهل أوربا التام بأفريقيا قبل القرن التاسع عشر بالحواجز الجغرافية التى تمتاز بها أفريقيا من صحراوات شاسعة ، وغابات كثيفة ، وأنهار غير صالحة للملاحة .

بالاضافة الى عدم حاجتهم الى مغامرات مجهولة المصير من النوع الذى يتطلبه الكشف عن أسرار أفريقيا ، كما سنرى فى المرحلة ما بعد القرن التاسع عشر .

على أننا لا ننسى ما رأيناه فى بداية هذا الفصل وهو عدم صلاحية السفن الأوربية للقيام برحلات تجارية أو علمية طويلة الأمد قبل منتصف القرن الخامس عشر .

والدليل على صحة هذه الحقيقة التاريخية هو أن كل الاستكشافات التاريخية الهامة التى قام بها الأوربيون داخل أفريقيا .. انما تمت فى القرن التاسع عشر .

فمنبع نهر النيجر العظيم ومصدره .. اكتشفهما عالم الجغرافيا البريطاني (بيكر) الذى مات فيه غرقاً عام ١٨٠٥م . ومن بعده وضع المستكشف الجليل (كلابر) خريطة النهر التفصيلية . ومعلوم أن نهر النيجر كان فى نظر الأوربيين لُغزاً احتاروا فى حلّه . وكذلك نهر النيل العظيم ظل سراً غامضاً على الأوربيين وقد لجأوا فى تفسير منبعه الى الخرافات والأساطير ، حتى كشف عنه النقاب عالما الجغرافيا البريطانيان (استيك وبيكر) اثر رحلتين علميتين قاما بها فى العامين ١٨٦٠ ـ ١٨٦٢ م ، وأثبتا فيهما للعالم أن النيل الأبيض ينبع من البُحيرتين الكبيرتين فكتوريا وألبرت فى أوغندا .

وحتى الجبال العالية مثل كينيا وكليمانجارو، اكتشفها المبشر الألماني (ريمان) عام ١٨٤٧م .

وما لنا نذهب بعيداً وعندنا السيد (ليفينج استون) عالم الجغرافيا البريطـاني الذى غيَّر خريطة أفريقيا لدى أوربا ، والذى يُعَد بحقٍّ أعظم المستكشفين الأوربيين شـأناً فى أفريقيا ، وأكثرهم تجوالا داخل أفريقيا .

فقد سافر على أغلب أنهار القارة الأفريقية ، وصعد على معظم جبالها الشاهقة ومر بصحاريها الشاسعة، مُبشراً بالمسيحية ومُحارباً ضد تجارة العبيد ، ومسجلا كل ملاحظـاته فى كتاب أسماه (سفريات المُبشرين وأبحاثهم) .

قام السيد (ليفينج استون) هـذا بثـلاث رحلات علميـة داخل أفريقيـا ، استغرقت ٣٢ عاماً الاّ شهوراً (١٨٤١م-١٨٧٣م) وفى نفس هذا العام الأخير مات فى أفريقيا ، كل هذا يؤكد صحة الحقيقة التاريخية القـائلة بأن أفريقيـا

السوداء كانت مجهـولة لدى أوربا قبل منتصف القرن الخامس عشر .

رابعاً : الحقيقـة الرابعـة والمسـتفادة من العلاقات الأوربية الأفريقيـة قبل القرن التاسع عشر هي أن معظم الأوربيين أتوا الى أفريقيا فى اول الأمر كلصوص قتـلة ، باحثـين عن النهب والسلب ، ولكنهم لجـأوا الى السلم والصداقة فى نهاية الأمر .

لكنهمواجهوا مقاومة شعبية عنيفة ومستميتة، فرضت عليهم خضوعاً لشروط زعماء أفريقيا . فهم لم يفلحوا فى اخضـاع أفريقيا بقوة السلاح كما فعلوا فى الأمريكتين ضد الهنود الحمر ، ومن ثمدخلوا القارة تحتشعارات الصداقة والوصاية والحمـاية والمعـاهدة ، وغـيرها من الأسـاليب السياسية الاستعمارية التقليدية والمعروفة لدى الجميع .

١ ـ تجـارة العبيـد :

الواقع أن مسـألة اعتبار بعض الناس عبيداً

نظام اجتماعي قديم فى كلّ المجتمعات الانسانية نتيجة للأسر فى الحروب أو عقاباً لذنوب معينة .

غير أنها صادفت هذه المرة عملية تجارية مربحة بعد أن كانت علاقة اجتماعية . وكانت البرتغال أول دولة أوربية تستورد عبيداً من أفريقيا ، فبعثة ملك البرتغال هنري الملاح التى أرسلها للكشف عن طريق الى الشرق عادت ومعها ١٢ عبداً ثم واصلت البرتغال استيراد الأفريقيين الذين اصطلح على تسميتهم عبيداً ، ظُلماً وقهراً وغصباً .

اكتشف فاسكو دغاما طريق رأس الرجاء الصالح المؤدّى الى الشرق سنة ١٤٤٦ م . وباكتشاف هذا الطريق تحقق أمل البرتغال في التجارة مع الشرق ، وعليه توقفت مؤقتاً عن تجارة العبيد ، لقلة أرباحها بالقياس الى الفوائد الجمة التى تعود عليها من تجارتها مع الشرق .

ولكن اذا كان اكتشاف دغاما لطريق رأس

الرجاء الصالح عاملا مساعداً على وقف تجارة العبيد ، فان اكتشاف كريستوفر كولمبوس للأمريكتين عام ١٤٩٢م . كان بمثابة دعوة صريحة الى ممارسة التجارة القذرة وعلى نطاق واسع .

ذلك لأن التنقيب عن مناجم الذهب في الأمريكتين والعمل فوق مزارع القطن والسكر والتبغ الشاسعة هناك ، تطلب كل ذلك أعداداً هائلة من العمال الأقوياء .

ولم يكن فى استطاعة البرتغال وأسبانيا وهما صاحبتا المستعمرات الكبيرة فى الأمريكتين آنذاك تقديم العمالة اللازمة لتطوير مستعمراتهما . فَلاَح الأمل فى أفريقيا .

ثم حذت فرنسا وبريطانيا حذو البرتغال وأسبانيا وكان ذلك بداية رسمية لتجارة العبيد القذرة التى اشتركت فيها معظم الحكومات الأوربية وشعوبها . ولم تعد تجارة العبيد بعد ذلك عملية سرية تتم خفية فى جنح الليل ، بل صارت تجارة

منظمة ذات مصالح حكومية وموظفين مختصين ، ومقاولين محتكرين وقلاع محصنة لحفظ العبيد قبل تصديرهم . وقد وقع سوء الحظ على شعوب غرب أفريقيا وموزمبيق وأنجولا جنوباً وزنجبار شرقاً . وهي البلدان ، التى كان يُصدّر منها العبيد . وهذا لا يعنى أن الشعوب الأفريقية الأخرى سَلِمت من شرور اختطاف أبنائها لبيعهم عبيداً فى الأسواق العالمية .

على أن هناك ظاهرتين ملفتتين للنظر فى دراسة تاريخ تجارة العبيد وهما :

أولا : أن الدول الأوربية المعنية بأمر هذه التجارة الملعونة تنافست بينها واختلفت حول أسهمها فى الغنائم البشرية ، وانتهى بها التنافس الى توقيع معاهدة تحدّد أسهم كل دولة فى التجارة القذرة عام ١٧١٣م . وكان لبريطانيا نصيب الأسد اذ حصلت على نصف عدد العبيد المصدرين وتلتها فرنسا فالبرتغال من حيث نسبة الأسهم ، والحقّ أنه اذا أضيفت هذه المعاهدة الخاصة

بتقسيم أبناء أفريقيا كعبيد الى اتفاقية الدول الأوربية حول تجزئة القارة الأفريقية فيما بينها في مؤتمر برلين عام ١٨٨٤م ، يكون تاريخ أوربا في حاجة الى كلمة أقوى وأقرب الى العدل من كلمة الجريمة أو الظلم كما يقال غالباً .

ثانياً : الظاهرة الثانية هي أنه لم يكن في استطاعة ملوك ورؤساء القبائل في أفريقيا ، وفق تجارة العبيد لعدم الموافقة فيما بينهم من جهة ، ولحاجتهم الى الأسلحة النارية التي يحضرها الرجل الأوربي بمقابل العبيد فقط . وكانت الأسلحة النارية ضرورية لزعماء قبائل أفريقيا للدفاع عن سلطتهم وسيادتهم وأقوامهم .

ب ـ حظر تجارة العبيد :

ابتدأت حركة محاربة التجارة القذرة في لندن عام ١٧٧٢م بدعوة من موظف بريطاني يدعى جرنفيل شاربي . وكان جرنفيل هذا صاحب قلب طيب وجرأة كبيرة ، درس جوانب القضية

الاجتماعية والاقتصادية والانسانية والقانونية، ثم أثبت بأدلة قاطعة آثامها الدينيـة وأضرارها بكل الأطراف المعنية وعدم فائدتها اقتصادياً .

وقد أثمرت جهـود السيد جرانفيل باصدار قانون الحظر على تجارة العبيد فى بريطانيـا عام ١٧٧٢م وكانت الخطوة الثانية تتركز فى محاولة منع التجـارة الملعونة فى كل أنحاء الامبراطورية البريطانية وقد حمل لواء الكفاح فى هذه المرحلة رجل يقترن اسمه بحركة حظر التجـارة القذرة ألا وهو وليم ويلبر فورس الذى استطاع بحكم منصبه كنائب فى البرلـمان من أسرة استقراطية غنية وبفضل موهبته الخطابية وصداقته الحميمة مع رئيس الوزراء ، استطاع بفضل هذه الصفات كلها تسليط أضواء كاشفة على القضية وجعلها مشكلة السـاعة أمام الرأي العـام البريطـاني والبرلمان على السواء .

وقـد أثمرت الحمـلات الفـكرية والدينيـة والانسانية التى قادها السيد وليم ضد التجارة

الملعونة باصدار البرلمان البريطاني عدة تشريعات مانعة لممارسة التجارة القذرة في كل أنحاء الامبراطورية . وقد أصدرت تلك القوانين فى الأعوام ١٧٨٨ـ١٨٠٧ـ١٨٣٣م مع تخصيص مبلغ عشرين ألف مليون جنيه كتعويض لأصحاب العبيد .

وعلى الرغم من أن القوانين التى أصدرتها الحكومة البريطانية كانت مقصورة على حدود امبراطوريتها فان تأثيرها على الدول الأوربية الأخرى كان عظيماً لسببين :

أولهما : أن الدعوة الانسانية التى قامت فى بريطانيا وجدت صدى طيباً في النفوس الطيبة فى الأقطار الأوربية الاخرى . فقد انبرى عدد كبير من مفكريها ورجال الدين للكتابة عن القضية وابرازها فى صورة جريمة انسانية ودينية بشعة .

وثانيهما : أن بريطانيا التى حرمت التجارة الملعونة فى كل أراضى امبراطوريتها متنازلة في

ذلك عن أرباح مالية هائلة كرهت رؤية انفراد الدول الأخرى بالفوائد فى هذا المجال .

وبناء عليه دخلت بريطانيا مع تلك الدول فى مفاوضات مضنية أدت الى اتفاقية كل من بريطانيا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال على حظر تجارة العبيد .

كان ذلك نظرياً ، ولكنه عملياً كان من العسير بمكان تنفيذ قوانين حظر تجارة العبيد ، لكونها تجارة مربحة منجهة ، ولاعتماد معظم الأوربيين على عمل العبيد من جهة أخرى .

وكان ثمة عامل ثالث جعل قوانين حظر التجارة الملعونة جبرأ على ورق ، وهو اتساع المساحة التى كان يجرى فوقها العمل المحظور ، ولذا فان قانون تجريم تجارة العبيد القذرة واجه معارضة قوية ومستميتة منذ بدايته . وظل يتأرجح بين نجاح فى مكان ، واخفاق فى أماكن أخرى طيلة أربع قرون ونصف القرن حتى توقف نهائياً فى مطلع القرن العشرين بفضل جهود دعاة

الانسانية ونتيجة لارتفاع وعي الرأي العام العالمي والأفريقي .

وبعدها عاد السلام الى القارة الأفريقية ، فتفتحت النفوس للعمل ، ونشطت الهمم للبناء والتعمير وكان ذلك بداية عصر جديد في التاريخ الأفريقي .

جـ ــ آثار تجارة العبيد على أفريقيا :

الحق أن النتائج السيئة لتجارة العبيد القذرة كثيرة جداً كما أن آثارها السلبية على أفريقيا السوداء غير قابلة للحصر . ومعذلك فلا مانع من أن نتناول فيما يأتى ثلاثة جوانب من الآثار السيئة للتجارة الملعونة بالنسبة لأفريقيا السوداء :

أولا : قيام حروب دموية ابادية بين القبائل الأفريقية بحثاً عن الأسر أو دفاعاً ضده . فمن المعلوم تاريخياً أن الأوربيين كانوا يأسرون العبيد بأنفسهم فى أغلب الأحوال ، بل كانوا يقدمون

بضائع وأسلحة نارية الى رؤساء القبائل مقابل عبيد بأسعار محدودة . وبما أن ثراء رؤساء القبائل وأتباعهم يتوقف على عدد العبيد فى حوزتهم فانه ليس من العسير على عقولنا ادراك المآسى البشرية التى يمكن حدوثها فى بلد صار الأسر فيه حرفة رئيسية للمعيشة اليومية .

واذا كان عدد العبيد الذين وصلوا الى الأمريكتين أحياء قد بلغ خمسة عشر مليوناً بحسب الاحصاءات الرسمية التى سجلها تجار العبيد والمكاتب التابعة لهم ، فانه ليس من العسير على أذهاننا أيضاً تصور عدد الذين قتلوا فى ميادين المقاومة أو فى قلاع الحشد اختناقاً وضرباً ، وكذا الذين ماتوا فى عرض البحار برداً وجوعاً .

وترتب على تلك الحروب فوضى شاملة فى الحياة الأفريقية ، وانعدام الأمن والسلام اللازمين للعمل الصالح والتطور الطبيعي .

ثانياً : تحطيم اقتصاديات القارة بأخذ الملايين من شبابها الأقوياء وأصحاب المهن من

جهة ، وهجرة بعض القبائل العريقة عن مدنها المعمورة ، هرباً من الأسر ، وعودتها الى الحياة البدائية على أرض جديدة ووعرة من جهة أخرى.

وهذه الأمور في جملتها أضعفت القارة ، ومزقت وحدتها وجعلتها لقمة سائغة للاحتلال فيما بعد .

ثالثاً : كان لتجارة العبيد ومازال تأثير نفسى سيىء على الأفريقيين والأوربيين فهي تعنى بالنسبة للأفريقيين طعنة قوية فى صميم انسانيتهم ذهبت بكبريائهم واعتزازهم الذاتي . ثم ان صورة أجدادهم وهم مكبلون بالسلاسل والحديد فى حصون تعسكرهم أولا وبيعهم فى مزاد علني فى الأسواق العالمية ثانية ، هذه الصورة بأحزانها وأشجانها مازالت تمر حتى الآن بخاطر الأفريقيين .

ومن وجهة نظر الأوربيين ، فان العقلاء منهم يعتبرون تجارة العبيد جريمة تاريخية مضت

بلا رجعة ، ويكفيهم كفارة لها أنهم عملوا على وقفها .

وغير أن سفهاءهم ، وما أكثرهم ، يعتبرون تجارة العبيد وثيقة تاريخية تشهد بتأخر الانسان الأفريقي بالفطرة ، وبالتالى يكيلون له كل الشتائم .

اسباب احتلال أفريقيا
في القرن التاسع عشر

كما تعلم ان سيطرة أوربا على أفريقيا تمت خلال القرن التاسع عشر على الرغم من أن العلاقات الأوربية الأفريقية ابتدأت فى القرن الخامس عشر ، كما رأينا فى الفصل السابق .

فلماذا حدث الاحتلال فى هذا القرن بالذات .

الواقع أن فهم هذا السؤال يكمن فى دراسة تاريخ أوربا نفسها أكثر من تاريخ أفريقيا .

والسبب هو أن فروقاً هائلة قد حدثت بين شعوب القارتين فى أوجه الحياة المختلفة فى مطلع القرن التاسع عشر ، نتيجة للثورة الصناعية التى محت المستحيل من قاموس الأوربيين وجعلت أحلامهم حقيقة ملموسة . قبل هذه الثورة الصناعية كانت حياة شعوب القارتين بسيطة

ومتقاربة الى أبعد الحدود ، لاعتماد شعوب القارتين على زراعة متأخرة تنتج كل أسرة لنفسها بما فيه الكفاية من الحبوب الغذائية .

وبناء عليه لم تكن لدى الأوربيين حاجة ماسة للسيطرة على القارة الأفريقية بأكملها .

وكان نشاط الأوربيين قبل القرن التاسع عشر فى القارة الأفريقية مقصوراً على مراكزهم التجارية والتموينية المنتشرة على طول شواطىء القارة الأفريقية .

بالاضافة الى الهجرات الجماعية التى قام بها الأوربيون فى تلك المرحلة للاستيطان فى أية بقعة تروق لهم فى العالم .

وما الأمريكتان واستراليا وجنوب أفريقيا الا نتيجة لحركة الاستيطان الواسعة النطاق التى قام بها الأوربيون فى المرحلة التاريخية الواقعة بين منتصف القرن الخامس عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

ولكي نفهم أن الثورة الصناعية كانت السبب الرئيسى الذى دفع الأوربيين الى السيطرة الكاملة على القارة الأفريقية ينبغى أن نلقى نظرة سريعة على حياة شعوب القارتين فى تلك المرحلة التاريخية فنقول :

أولا ـ الحياة الأفريقية :

على الرغم من بساطة حياة الأفريقيين وتأخرها بمقياس الحضارة الحديثة فانه كان لديهم اكتفاء ذاتي فى الطعام واللباس والسكن فى القرن التاسع عشر .

فبالنسبة للطعام فان الأفريقيين كانوا ينتجون محصولات زراعية كافية لهم وكان كل أفراد الأسرة القادرين يزاولون العمل الزراعي بأنفسهم حتى وان قاموا بمهن أخرى فى أوقات فراغهم كالنحت والرسم والزخرفة وكان بعضهم رعاة يعتمدون فى حياتهم على المواشى ، يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ، وبخصوص اللباس فان

أهل الحضر كانوا يلبسون ملابس مصنوعة محلياً أو مستوردة من الخارج بمقابل الذهب والعاج والكتّان .

وكان يشاركهم فى هذا أهل البوادى القريبة من المدن . أما سكان البوادى البعيدة التوغل فى الغابات فان ملابسهم كانت مصنوعة محلياً من الجلود وأغصان الأشجار .

أما من حيث السكن فان أهل المدن كانوا يقيمون فى بيوت جميلة ومبنية من مواد متوفرة محلياً أى من الطين والخشب والأحجار .

ثانياً ـ الحياة الأوربية :

كانت حياة الأوربيين قبل القرن التاسع عشر شبيهة بحياة الأفريقيين من حيث البساطة والاكتفاء الذاتي فى المأكل والملبس والمسكن .

غير أن الثورة الصناعية أحدثت فى حياة الأوربيين الأمور التالية :

١ ـ أن الثورة الصناعية تسببت في هجرة جماعية من المزارع الى المصانع لارتفاع الأجور وقلة ساعات العمل فى الشركات الصناعية بالقياس الى العمل فى المزارع .

وترتب على تلك الهجرات الجماعية أن العدد القليل الذى بقي في المزارع لم يعد قادراً على انتاج طعام كاف لسكان البلدان الأوربية ، وعلى الرغم من استعانتهم بالوسائل العلمية الزراعية من آلات وأدوية .

فصار لزاماً على الأوربيين أن يستوردوا من الخارج واحداً من أهم مقومات الحياة وهو الطعام .

٢ ـ ونظراً لأن الثورة الصناعية غيّرت الحياة العقلية والاقتصادية والاجتماعية عند الأوربيين انهم جعلوا من ضروريات حياتهم الحصول على ملابس قطنية وصوفية راقية ، والسكن فى بيوت جميلة مريحة ومبنية من خشب وحديد وأسمنت فواجهتهم أيضاً مشكلة أن

الصوف والقطن وكذا مواد البناء غير موجــودة بالكمية المطلوبة فى أقطارهم .

فصار لزاماً عليهم استيراد كل ذلك من الخارج.

٣ ــ وثمة حقيقة ثالثة وعلى درجة كبيرة من الأهمية وهي أن الثورة الصناعية جعلت المصانع قادرة على انتاج أكبر كميات ممكنة من البضائع فى أقصر وقت ممكن . كما أنها خلقت مواصلات حديثة وحدت العالم سلباً وايجاباً ، وألغت عامل بُعد المسافات من حساب الناس .

الاكتشاف الخطير :

واضح مما ســبق أنه كان لدى الأوربيــين فى مطلع القرن التاسع عشر حاجة ماسة الى خيرات أفريقيا ورغبة قوية فى احتلالهــا ، وقدرة مادية على تنفيذ ارادتهم .

وذلك بعد أن اكتشفوا بصورة قاطعــة ، أن كل الأشياء التى يحتاجونهــا كطعام لأنفسهم أو المواد الخام لمصانعهم متوفرة فى أفريقيا وبكميات

لا حدود لها .

يضاف الى ذلك اكتشاف آخر لا يقل خطورة فى العلاقات الأوربية الأفريقية عن الذى سبقت الاشارة اليه ، وأعنى به أنهم أدركوا حقيقة أن الأفريقيين على استعداد تام لشراء المنتوجات المصنعة فى أوربا .

وكان ذلك كله نقطة التحول الرئيسية فى العلاقات الأوربية الأفريقية ، وبداية للسيطرة الكاملة على أفريقيا كمصدر للمواد الخام ، وسوق المنتوجات . ومن هنا كان التنافس بين الدول الأوربية حول القارة الأفريقية شديداً ، ارتفعت درجة حرارته أحياناً الى حد مواجهة دموية بين الدول المتنازعة على خيرات أفريقيا .

وقد انتهى بهم أمر التنافس الى تجزئة القارة وتقسيمها فيما بينهم فى مؤتمر برلين التاريخي عام ١٨٨٤م .

والحق أن هذه الحقائق التاريخية هي التى

تساعد المرء على فهم عبارة الدكتور كوامى تكروما ومن دعاة تحرر أفريقيا ورئيس غانا الأسبق ـ قال : (الاستعمار والحرية كلاهما حقيقة اقتصادية) .

آثار الاحتلال على أفريقيا :

ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار قبل كل شىء أن العلاقات الأوربية الأفريقية لم تكن طيبة اذ أنها بدأت بتجارة العبيد ، ومرت بمرحلة السيطرة الكاملة على القارة ، وانتهت بالكفاح المؤدي الى الاستقلال .

الا أنه على الرغم من أن العلاقة بين الأوربي والأفريقي كانت علاقة السيد بالعبد . فان شعور كل منهما تجاه الآخر كان فى تغير مستمر تبعاً لتغير الظروف والعصور . فقد تخاصما وتضاربا ، اختلطا وتصاهرا ، عملا معاً وعاشا سوياً .

ومن خلال ذلك الاحتكاك المباشر فى السلم

والحرب ، فى العمل والعيش ، ومن خلال المخالطة والمصاهرة الانسانية حملت القارة الأفريقية توأمين :

أولهما : الحضارة الأوربية علماً وعادات ، عملا وفكراً .

وثانيهما : الحرية التى ظلت مضغة طوال المرحلة السابقة للحرب العالمية الأولى ثم صارت كائناً حياً فى بطن القارة فى الفترة ما بين الحربين، فوليداً معتلا ذا عاهات عديدة بعد الحرب العالمية الثانية كما سنرى فى فصل مشاكل ما بعد الاستقلال .

ثم ان تأثير الاستعمار الأوربي على أفريقيا يختلف من قطر الى قطر آخر ، ومن أقليم الى أقليم آخر داخل بلد واحد ، نتيجة لاختلاف الوسائل التى طبقتها الأوربية فى تنفيذ سياساتها من جهة . وتبعاً لموقف كل قطر أو أقليم من قوات الاحتلال قبولا أو رفضاً .

وعلى العموم ، فان الاستعمار الأوربي قد تسبب فى سقوط امبراطوريات أفريقية ، وقيام طبقات جديدة وأنظمة للحكم على أنقاضها .

فالمعلوم تاريخياً أن الطبقات الأفريقية التى قبلت الاحتلال وتعاونت معه ، وعملت كوسيط بينه وبين الشعب تلك الطبقات استفادت منه ، وتمتعت بامتيازات عديدة . فكان منها الكتبة ورجال الأمن والمترجمون الذين لعبوا دوراً هاماً فى الحياة الأفريقية فى عصور الاحتلال لترجمتهم الأمور على هواهم ووفقاً لمصالحهم .

وكانت امتيازات الطبقة المتعاونة مع الاستعمار على حساب الطبقات الأخرى من الشعب التى رفضت الاحتلال وقاومته وطنية منها وكراهية لظلمه .

والواقع أن الطبقات المعارضة للاستعمار فى كل البلدان الأفريقية واجهت كل أنواع الظلم والوحشية من تعذيب وابادة جماعية ونفي ومصادرة أموال وقد استمرت حياة هاتين

الطبقتين على هذا المنوال طوال فترة الاحتلال أى الطبقة المتعاونة مع الاحتلال فى تقدم مضطرد اقتصادياً وثقافياً والفئات الوطنية العارضة فى تأخر دائم تحت حياة المطاردة والتشريد وجلب الأموال .

وكان من سوء حظ أفريقيا أن أمرها بعد الاستقلال آل الى الطبقة العميلة للاستعمار ، التى ظلت وفية ومخلصة للاستعمار .

وكان الاستعمار على كل حال ، سلاحاً ذا حدين أصاب القارة فى صميم القلب، وكاد يقضى عليها لولا الحد الثاني الذى انقلب على أوربا نفسها ، وقضى على آمالها فى القارة الأفريقية .

وفيما يلى توضيح الحدين المذكورين :

الحد الأول :

كانت أسباب الاحتلال اقتصادية كما رأينا ومعنى هذا أن كل الامكانات المادية والطاقات البشرية كانت مسخرة لخدمة مصالح الدول

المستعمرة .

وكان الاستعمار الى جانب ذلك معنوياً سَبَّبَ انسلاخاً للعقلية الأفريقية وانفصاماً لشخصيتها لكونه قنبلة محملة بحضارة أوربا بمحاسنها ومساوئها تلك القنبلة الحضارية ان جاز هذا التعبير، انفجرت فى المجتمعات الأفريقية ، وقضت على تقاليد عريقة وطرق للمعيشة ، وأساليب المعاملات بين الناس . واحتلت محل هذا كله ما كانت تحمله فى طياتها من حضارة أوربا وعاداتها وتقاليدها وقوانينها .

والحق أن الأفريقي فى مرحلة انسلاخه من حياته الحرة الطليقة ، ذات السيادة المتوارثة والتقاليد الأصلية ، وقبوله عادات الغزاة وأنظمة حكمهم قد قاس كثيراً ، وشعر بمعاناة نفسية مريرة أدت الى انتحار الكثيرين من زعماء أفريقيا ، مفضلين الموت على حياة غريبة جديدة كلها ذل وهوان وخضوع .

وقد أنتج عدد كبير من مثقفى أفريقيا فى

السنوات الأخيرة أعمـــالا أدبية قيمة من روايات ومسرحيـــات وأشـــعار ، مصورين فيهـــا حيـــاة الانسان الأفريقي فى مرحلة الاحتـــلال وما كان فيهـــا من بؤس وشقاء وحيرة ذهنية واضطراب نفسي .

الحد الثاني :

كانت تصـــاحب الاحتلال العســكري بعثات تبشيرية هدفها نشر الديانة المسيحية ولكي تؤدى البعثـــات رسالتهـــا على الوجه الأكمل ، افتتحت مدارس دينية عـــديدة لتعليم النـــاس القـــراءة والكتابة والمبادىء الأوليـــة للحساب ، تمهيـــداً لتفقههم فى العلوم المسيحية غير أن كُتباً قيمة قد وقعت فى أيدى التـــلاميذ الأفريقيين فى مدارس الارســـاليات ، كُتُب تفيد أن النـــاس سواسية بصرف النظـــر عن اللـــون والجنس ، ولهم نفس القدرات على تطوير حياتهم كمـّــاً وكيفاً .

وترتب على ذلك أمران هامان :

أولهما : أن التعليم صار حركة شعبية واسعة النطاق كوسيلة وحيدة فى الحصول على الوظائف الحكومية التى تحقق لأصحابها حياة راقية هنيئة وقد بلغت حركة التعليم هذه ذروتها حين ساهم فيها الأفريقيون الذين تخرجوا من مدارس الارساليات وكان لحركة التعليم أثر كبير على تفتح الأفريقيين وتحضرهم أعنى النظر الى الحياة من زاوية العصر الحديث .

وحينما تنبه الأوربيون الى خطورة حركة التعليم على مصالحهم ، لم يكن في امكانهم السيطرة على نور التعليم الذى ينتشر فى كل أجزاء القارة كلهيب الحريق فى أعشاب الخريف .

وثانيهما : أن الأذكياء من متعلمي أفريقيا طمحوا فى المناصب العالية التى كان يحتلها الأوربيون فى أول الأمر ، ثم رغبوا فى تحقيق حياة راقية لشعوبهم بطرد الأوربيين أو باقامة مؤسسات اجتماعية واقتصادية مستقلة عن تلك التى يديرها الأوربيون .

وكان ذلك بداية لمعارضة أفريقيـــة جـديدة وهادفة الى خلق مجتمعات حرة ذات حياة عصرية . وكان ذلك أيضاً بالنسبة للأوربيين ظهور ما لم يكن فى الحســبان . مجهود البعثات التبشيرية فى خلق مواطن أفــريقي مسيحي مستعمر وصـــالح أثمرت وغضباً عنهم ، ظهور مارد أفريقي متعلم ومطالب بحريته بأيّ ثمن .

الفصل الرابع

الحرب العالمية الأولى
أسبابها وأثرها على أفريقيا

قامت الحرب العالمية الأولى فى يونيو ١٩١٤م . وانتهت فى نوفمبر عام ١٩١٩م .

والحــرب كما يقال وسيلة غير مرضية لحــل المنــازعات بين الأمم وان كل حرب مهما كانت نتائجها انما تزرع بذوراً لحرب أخرى وتنحصر أسباب الحرب العالمية الأولى فى أمور كثيرة أهمها:

أولهما : لم يكن التقدم البــاهر الذى أحرزته أوربا فى المجــالات العلميـــة والاقتصـــادية والاجتماعية طوال فترة القرن والنصفالسابقة للحــرب ، لم يكن ذلك التقدم المــادي مصاحبــاً بتطور مماثل له فى العلاقات الدولية والقوانين العــالمية وكانت كل دولة تحتفظ لنفسها بحرية التصرف فى اتخاذ الاجــراء الذى تراه مناســباً لمصالحها ، حتى ولو كان ذلك الاجراء على حساب

دول أخرى .

فلم تكن هناك سلطة عالمية يرجع اليها فى فض المنازعات بين الدول كالأمم المتحدة مثلا .

ثانيهما : ان علاقات الدول الأوربية بعضها بالبعض كانت سيئة للغاية ومتسمة بطابع الكراهية والحقد والخوف المتبادل ، نتيجة لحروب سابقة وتنافس فى التجارة والمستعمرات ، فبريطانيا كانت سيدة العالم التى لا تغرب الشمس على علمها ، وحريصة على ممتلكاتها ومستعمراتها ، وخائفة على طرق تجارتها الى الشرق من قوة يوماً بعد يوم .

وكانت بقية الدول الأوربية تنظر الى بريطانيا بعين السخط والحسد لثرائها الفاحش وسيطرتها العالمية .

ومن جهة أخرى كانت العداوة شديدة بين فرنسا وألمانيا لتنازعهما على المغرب ، وبسبب حروب عام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١م ، التى هُزمت فيها فرنسا استُقطِعت بعض أراضيها .

وفى شرق أوربا كانت الكراهية مستحكمة بين روسيا ومملكة النمسا والمجر ، لتوسع الأخيرة على شعوب المنطقة .

وكان لزاماً على كل دولة فى وسط تلك الظروف المتوترة دولياً البحث عن حلفاء لها فى حالة الحرب .

وأخيراً .. واثر اغتيال ولي عهد النمسا والمجر فى الغرب قامت الحرب بين روسيا وبين النمسا والمجر .

وانضم الى صف المجر والنمسا كل من ألمانيا وتركيا ومستعمراتهما . وأيد روسيا كل من فرنسا وبريطانيا ومستعمراتهما ، والولايات المتحدة الأمريكية فى السنة الأخيرة للحرب . المهم أن الحرب قامت بين هاتين المجموعتين اللتين جرّتا العالم كلّه الى لهيب المعركة .

واستمرت الحرب كما تعلم .. زهاء خمس سنوات عجاف ، وانتهت بهزيمة مجموعة ألمانيا.

غير أن انتهاءها لم يكن نهاية لويلات الحروب ومآسيها كما توقعت الشعوب الأوربية ، وذلك لأن معـــاهدة الصـــلح التى وقعت بين المنتصرين والمهزومين اثر الحرب ، فرضت على ألمانيا شروطاً مجحفـــة ، بمقتضاها أ'خـــذت كل مســـتعمرات ألمانيا ، وطائراتها ، وسفنها التجارية والحربية، ونزع سلاحها .

كما أ'لزمت بدفع تعويضات للدول المنتصرة عن كل خسائرها فى الحرب من مال وعتاد حربي ورجال .

وكانت هذه الشروط سبباً فى قيـــام الحـــرب العالمية الثانية كما سنرى .

والتاريخ يذكر أن حادثة اغتيال ولي عهـــد النمسا والمجر فى الغرب .. كانت ذريعة لاشعال الحرب وليست سبباً جوهرياً لقيامها ، اذ أنهـــا ستقوم حتماً بدونها لتوفر عواملها .

أ ـ أثرها على أفريقيا :

الواقع أن الحرب العالمية الأولى تعد نقطة التحول فى العلاقات الأوربية الأفريقية لأسباب كثيرة أهمها :

أولا : أن الحرب كانت كارثة انسانية كبرى ، دمرت مدناً بأكملها ، وذهبت بأرواح عشرات الملايين من بنى البشر ، وشمل لهيبها كل أقطار العالم تقريباً . وكان من نتائجها كراهية الناس للحروب والظلم بصفة عامة ، الأمر الذى أدى الى تأسيس (عصبة الأمم) لتجنب ويلات حروب جديدة واحلال السلام فوق الكرة الأرضية ولكل الناس ، وفى عصبة الأمم نوقشت أمور كثيرة منها مسألة الحرب والسلام ومشاكل المستعمرات.

وتمخض النقاش عن فكرة وضع مستعمرات ألمانيا تحت وصاية عصبة الأمم ، وتحسين أحوال المستعمرات بصفة عامة .

بمعنى أن الدول الأوربية المستعمرة ألزمت

دوليـاً وأمام الرأي العـام العـالمي بتطـوير مستعمراتها اقتصادياً وتعليمياً واعدادهم للحكم الذاتي ، ولم تكن الدول الأوربية راغبة فى فعل شىء من هذا القبيل ، غير أنها ومجاملة لقـرار عصبة الأمم وتحت تأثير ويلات الحـرب العـالمية الأولى أنفقت جـزءاً من اقتصاديات أفريقيا فى ايجاد مرافق عامة كالخدمات الصحية والتعليمية وطرق المواصلات .

والحق أن المستعمرات الأفريقيـة شـهدت فى الفترة ما بين الحـربين العالميتين تطوراً ملحوظاً فى ميـادين الحيـاة المختلفـة لا سيما فى التعليم والشئون الادارية ونظم الحكم .

فبريطانيـا مثلا أقامت مجـالس البـلديات وبرلمانات تشريعية سياسية رغبة منها فى اعطاء سياستها الاستعمارية الجديدة صبغة قانونية .

وأهم ما فى هذه المسألة أن الأعضاء الأفريقيين فى هذا المجال اكتسبوا خبرة ادارية واسعة وفكرة

عامة عن شئون الحكم وجملة القول أن الأفريقيين صارت لهم كلمة فى أمورهم العامة والخاصة .

ويؤخذ على الدول المستعمرة فى تلك المرحلة أنها اعتمدت على رؤساء القبائل التقليديين الجهلة متناسية أو ناسية دور المتعلمين الأفريقيين الذين كان من الواضح أن مسئولية القيادة السياسية والكفاح الوطني من أجل الاستقلال سيؤول اليهم بالضرورة .

ثانيا : الأثر الثاني الذى يعد اللبنة الأولى لحركة الاستقلال فى أفريقيا بعد الحرب العالمية الأولى هو أنه قد تمكن عدد من أبناء أفريقيا من الذهاب الى أوربا وأمريكا لطلب العلم .

ومن هناك حصلوا على شهادات عالية فى فروع المعرفة والمام واسع بالمذاهب السياسية المعاصرة، كما اطلعوا على الحركات التحررية الطالبة بالاستقلال والحقوق المدنية التى كان يقودها طلاب آسيا وزنوج أمريكا .

هؤلاء الطلبة عادوا الى أوطانهم حاملين معهم أفكار الغرب وثقافاته والسياسات المعاصرة ، فصدموا بفظاعة الظلم والجرائم البشعة التى ترتكب جهراً فى حق شعوبهم ، فصاحوا يهتفون متى الفجر ؟ وصاروا فى كل واد يخطبون ، مبصرين الناس بالظلم الواقع عليهم . وكان الدكتور كوامي نكروما من ذلك الرعيل الأول الذى حمل لواء الكفاح من أجل استقلال أفريقيا .

يضاف الى ذلك أن حركة الوحدة الأفريقية الداعية الى توحيد كل الأقطار الأفريقية تحت علم واحد ، علىغرار الولايات المتحدة الأمريكية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي .

ظهرت تلك الحركة وقوى شأنها فى المرحلة ما بين الحربين العالميتين وكان يلهب روحها غيرة وحماساً زنوج أمريكا لتشابه حياة الشعوب السوداء على جانبي المحيط الأطلنطي فى التأخر والاستعباد .

وقــد وضع هؤلاء الزنوج أفــكارهم فى كتب أوصلوها الى أفريقيا بأعــداد كبيرة . وقصارى القول أن عوامل كثيرة قد تضافرت على خلق رأي عام أفريقي قوي ومصمم على الاستقلال فى الفترة ما بين الحربين العالميتين .

والتاريخ يذكر أن تلك العوامل كلهــا ، على قوتها وخطورتها ، لما مكنت الأفريقيين من نيل الاستقلال فى الوقت الذى حصلوا عليه لولا قيام الحرب العالمية الثانية .

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥م)
أسبابها وأثرها على أفريقيا

أ ـ أسبابها :

تكاد أسباب الحرب العالمية الثانية تكون نفس أسباب الحرب العالمية الأولى التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق وتتلخص عوامل قيام هذه الحرب العالمية الثانية فى :

أولا : فشل عصبة الأمم فى المهام والمبادىء التى أسندت اليها بسبب رفض الولايات المتحدة الأمريكية الانتماء الى عضويتها والالتزام بقراراتها ، وحذو الدول الأوربية حذوها فيما بعد .

ثانياً : وجود أطماع شديدة لدى بعض الدول الأوربية فى ممتلكات دول أوربية أخرى .

وخلقت هذه الأطماع كراهية قوية وشكوك

متبـــادلة بين الدول الأوربيـــة ، يضاف الى ذلك انعدام سلطة عالمية يوكل اليها البت في الخلافات السياسية بين الدول .

وفى وسط تلك الظـروف الدوليـة المعـكرة والعديمة الثقة والقوانين العالمية برزت ألمـانيا من جـديد بغضب مزمن فوار ، نتيجة للشروط القاسية التى فرضت عليها اثر هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى .

برزت رافضة دفع التعويضـات التى فُرضت عليها سابقاً ، ومطالبـة بالأرض التى استقطعت منها وبمستعمراتها فيما وراء البحار .

ولما لم يستجب لمطالبها أعادت تسليحها وقفز الى حكمهـا الدكتاتور النـازي «أدولف هتلر» الذى استطاع أن يبعث فى الشعبالألماني العريق روحاً جنونية وحماساً قوميا أعمى ، واعداً اياه بالسـيطرة على العـالم والحصـول على خـيرات لا حصر لها .

ثم قامت الحرب وتتابعت المعارك ، واستولت ألمانيا على كل البلدان الأوربية ماعدا بريطانيا وبعض دول اسكندنافية المحايدة . وكان فى صف ألمانيا اليابان وايطاليا ومستعمراتهم « قوات المحور الثلاثي » .

وكانت تواجههم بقية شعوب الكرة الأرضية بقيادة بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فى السنة الأخيرة للحرب ، وروسيا بعد أن أعلنت ألمانيا عليها الحرب عام ١٩٤١م ، خلافاً للمعاهدة التى كانت بين ستالين وهتلر بعدم الاعتداء . والخلاصة أن الحرب انتهت ، كما تعلم ، بانتصار الحلفاء وروسيا وهزيمة قوات المحور ، واحتلال ألمانيا وتقسيمها الى الشرقية والغربية . وانتحار أدولف هتلر .

ب ـ أثرها على أفريقيا :

الذى يهمنا من أمر الحرب العالمية الثانية انما هو النتائج التى تمخضت عنها وعجّلت باستقلال أفريقيا وتتلخص تلك النتائج في :

أولا : انهــا حولت القيــادة الســياسية والاقتصــادية والعسكرية من أوربا الغربية الى القوتين العظيمتين فى العالم هما أمريكا وروسيا . ومعنى هذا أن أوربا صارت بعد الحرب العالمية الثــانية فى مركز الضعيف ، ومســتعدة لتلقى الأوامر بعد أن كانت تملى رغباتها على الشعوب قبل الحــرب وبما أن أمريكا وروســيا صــارتا القوتين العظيمتين فى العالم فلم ترضيا بالأوضاع القائمة فى العالم .

وبنــاء عليــه ورغبــة منهمــا فى أن يرثا مستعمرات الدول الأوربية التى أخذ نجمهــا فى الأفول . شجّعتا ، كل على طريقته ، الحــركات المطالبة بالاستقلال مادياً ومعنوياً .

فالولايات المتحدة مثلا أضافت الى ميثاق الأمم المتحدة الفقرة الخــاصة بحقوق كل الشــعوب فى تقرير المصير والحــرية على الرغم من معارضــة الدول الأوربية الشديدة لتلك الفقرة .

ثانياً : ان جنــوداً أفريقيين كثيرون قاتلوا

خارج بلادهم لأول مرة فى التاريخ فأخذوا فكرة واسعة عن العـــالم الخـــارجي وشاهدوا الحريات والحياة المادية المريحة التى ينعم بها أهل الأقطار التى حاربوا فيها . فكان طبيعياً بعد عودتهم ، أن يثيروا قلاقل وفتناً داخلية ضد المستعمرين رغبة منهم فى الحصول على الحيـــاة الراقيـــة التى رأوها فى الخارج .

ثالثاً : ان الحـــرب قد أحدثت تأثيراً نفســـياً قوياً على سلوك الأفـــريقيين وشـــعورهم تجـــاه الأوربيين ، لأنهم رأوا الاوربيين قتلى وجـــرحى رأوهم يمرضـــون ويبكون كمثلهم تمـــاماً . مما أزال الفكرة التى كانت لدى الأفريقي عن الرجل الأبيض وقضى على الهـــالة التى كانت تحيطه فى نظر الأفريقي قبل الحرب ، الأمر الذى أثبت له أن الناس سواسية كأسنان المشط .

ومن ثم فـــلم يكتف الأفـــريقي برفض أوامر الأوربي بل أعلنهـــا عليـــه حرباً عشواء مطالباً بحريته وحياة متطورة كريمة ، على نحو ما رآه

فى البلدان الخارجية التى حارب في أرضها .

رابعاً : قبيل الحرب العالمية الأولى ظهرت فى كل الأقطار الأفريقيةطبقة وطنية سياسية مكونة من الزعماء التقليديين والطلبة الذين عادوا من الخارج .

وكانت هذه الطبقة تخوض نضالا سياسياً مستميتاً وسط ظروف دولية معاكسة لعدم وجود محافل دولية تعبر فيها عن قضيتها ، ولا سيما أن أوربا شددت قبضتها على القارة بعد فشل عصبة الأمم .

فكانت الحرب العالمية الثانية وما حصل فى أثنائها من وعود بالاستقلال ، وما نتج عنها من تغير فى ميزان القوى الدولية وظهور الأمم المتحدة .

أقول كانت الحرب العالمية الأخيرة بهذه الصفات كلها فرصة ذهبية للطبقة الوطنية كي تشدد كفاحها المسلح ونضالها السياسي ضد الاستعمار . وهذا ما فعلته الطبقات الوطنية

الأفريقية المناضلة ، فكلّل كفاحها بالنجاح وتوّج نضالها بالاستقلال ، وجملة القول أنه لهذه الأسباب مجتمعة تحررت معظم أقطار القارة الأفريقية من استعمار ظلّ جاثماً على صدورها زهاء خمسة قرون .

فحقّ للشعوب الأفريقية أن تفرح بحريتها التى طال بها انتظارها ، حق لها أن ترقص فى أعياد استقلالها فوق المروج الخضراء وسط الغابات الكثيفة ذات الأشجار المورقة والأزهار المتفتحة، على ضفاف أنهار جارية .

وحقّ لها أخيراً أن تأخذ مكانتها اللائقة بها بين الأسرة الدولية وأن ترفع رأسها شامخاً بعد خضوع طويل .

ووجب عليها بنفس القدر أن تعمل جاهدة على النهوض بحياتها اقتصادياً واجتماعياً وفكرياً .

بيد أن الاستقلال كان وليداً ذا عاهات عديدة كما سنرى فى الفصل القادم .

مشاكل ما بعد الاستقلال

متفق عليه أن مشاكل أفريقيا جمة وعويصة ، وتتمثل اجمالا فى فقر مدقع ، وجهل مطبق ، وأمراض متفشية . هذا على الرغم من خيرات القارة الوفيرة وجهاد شعوبها منذ الاستقلال من أجل تغيير أوضاعها الأليمة الى الأفضل كماً وكيفاً .

وتبدو مشاكل القارة الإفريقية مغلقة بقفل محكم صناع مفتاحه من القارة . وقد قامت القارة حتى الآن بأربعة محاولات خاطئة لحل مشاكلها ، وبالتالى ضلَّت طريقها الى التقدم ، وتاهت فى قضايا القرن العشرين ومضاعفاتها المحلية والدولية ، وصارت كغصن فى مهب الرياح ، الأوربية . غير أن فشل الأنظمة السياسية الأوربية فى أفريقيا ظهر عقب الاستقلال مباشرة .

تتقاذفها الأحداث يميناً وشمالا رغماً عنها .
وفيما يلى توضيح للمحاولات السالفة الذكر :

أولا ـ الحياة البرلمانية :

كان طبيعياً أن تكون الحياة البرلمانية ذات الأحزاب المتعددة المحاولة السياسية الأولى لأفريقيا المستقلة لأن الأوربيين وضعوا قبيل رحيلهم دساتيرهم لأفريقيا ، رغبة منهم فى أن تظل الحياة السياسية عند الدول الأفريقية المستقلة على نمط الحياة السياسية البرلمانية

لأنه كان لدى الأفريقيين ابان الكفاح الوطني اعتقاد خاطيء بأن الحرية انما تعنى نهاية المشاكل والخروج من فقر الى ثراء فاحش بين عشية وضحاها .

وحارب الأفريقي الاحتلال الأجنبي بكل شجاعة مدفوعاً بهذا الأمل . والكفاح ضد الاستعمار قد لا يكون محتاجاً فى أغلب الأحوال الى نضج سياسي عميق والمام واسع بشئون الحكم

ومشاكل التنمية ، ان هو الا كيان مادي ملموس متمثــلا فى الرجــل الأبيض الذى يمــكن قتــله بمختلف الأسلحة . وترتب على ذلك عدم وجود خطة معينة أو برنامج مدروس لدى الأفريقيين لما بعد الاستقلال .

اذ ظلوا يقــاتلون الاستعمار ، متعاهدين على جنــة الفردوس فى يوم الاستقلال . وبعد كفاح طويل وقتــال مرير أشرقت شمس الحــرية على الشعوب الأفريقية فتنفست الصعداء .

الا أن الفــرحة لم تدم ، وظهر مالم يكن فى الحسبان . ذلك لأن ما ورثته الشعوب الأفريقية لم يكن ثورة صناعية ولا ثروة اقتصــادية ، بل حرية العمل فى بناء أوطانهم من الصفر ، الأمر الذى يتطلب خــبرة طويلة فى الشــئون الادارية ومعرفة واســعة عن تخطيط المشــاريع وتحديد الأولويات ، وقدرة مادية على تنفيذ كل ذلك .

ولم يكن لدى الأفريقيين شىء من هذا كله .

فاكتشفوا حقيقة أن الاستقلال ليس نهاية للمشاكل كما توقعوا . فكانت خيبة أملهم كبيرة. وصدمتهم بواقعهم الأليم مريرة .

ومن ثم برزت الخلافات القبلية والاقليمية واللغوية والدينية الى الوجود بعد الوحدة المؤقتة التى خلفها النضال الوطني والتى ما ان رفع علم الاستقلال حتى ظهرت على حقيقتها ممزقة الروابط ، ومفككة الأوصال وأخذت طبول الطوائف القبلية والأقليمية الدينية تدق بعنف ، مؤكدة وجودها ، ومصرة على تدعيم مركزها بضم صفوف أبنائها ، وخلق فرص النجاح لهم فى اتجاه مضاد للمصلحة العامة للأمة .

وثمة أمران زادا الطين بلة :

أولهما : أن الحدود الجغرافية التى وضعها الاستعمار بين أقطار القارة الأفريقية لم تراع المقومات الأساسية للأمم من لغة ودين وأصل وتاريخ مشترك . فهناك بلدان كثيرة تقطن كل

واحد منهـا شعوب ذت لغـات متعددة ، وأديان مختلفة ، وأجناس متباينة من حيث الأصل .

ومن الطبيعي فى مثل تلك البلدان أن تشـعر كل طائفـة بكيـان نـومي مسـتقل عن بقيـة الطوائف .

وثانيهما : أن معظم المسئولين الأفريقيين على اختـلاف مناصـبهم السياسـية والحـكومية لم يرتفعوا الى مستوى المسئولية القومية ، فبدلا من أن يعملوا على صهر لطوائف الأقليمية والقبلية واللغوية فى بوتقـة فـومية موحّدة ، وصل بهم الجهـل وضيق الأفق والأنانيـة الى حـد تضخيم الخـلافات المحليـة وتغذيتهـا ، رغبـة منهم فى الاحتفاظ بالمناصب وكراسى الحكم .

وترتب على ذلك اندفاع حروب أهلية دموية وضعت نهاية مؤسـفة لحيـاة ملايين من أبنـاء أفريقيـا الذين أبلوا فى سـبيل الاستقلال بلاءا حسناً .

ولا أظننا نملك دليلا أقوى من تلك الحروب الأهلية التى حدثت فى كل من الـكنغو (كنشاسا حالياً) ونيجيريا وروائدا وبوروندي .

يضاف الى ذلك انعدام العـدالة فى أفريقيـا المستقلة وضياع حقـوق النـاس فيها الى حَدّ اليأس .

حقيقة أن محاولات جادة وكثيرة قد بذلت ، وأن تطوراً ملحوظاً قد حـدث فى بعض جوانب الحياة غير أن واقع الأممالأفريقيةالسوداء مازال مؤلماً .

وبعد أن خابأمل الأفريقيين فى الحياة النيابية الديمقراطية ، وفى البرلمـانات السياسـية التى صارت سـوقاً للمسـاومات المـالية والصفقات التجارية للنواب ، ومكتباً عاماً لاختـلاس أموال الشـعب جمـلة وفى وضـح النهـار كان لا بد للأفريقيين من البحث عن مخرج آخر من المشاكل المتراكمة عليهم والفقر المتوارث قروناً . ولاح الأمل فى منظمة الوحدة الأفريقية .

ثانياً ـ منظمة الوحدة الأفريقية :

الواقع أن فكرة منظمة الوحدة الأفريقية ترجع الى مرحلة ما بين الحربين العالميتين . اذ دعا اليها عدد من زنوج أمريكا والطلبة الأفريقيون فى الغرب على نمط الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

ولكن الدعوة الى هذه المنظمة بعد الاستقلال كانت بمثابة أمل الأفريقيين فى التغلب على المشاكل المستعصية التى واجهتهم بعد الحرية ، اعتقاداً منهم بأن حل مشاكل القارة يكمن فى اقامة دولة أفريقية واحدة تجمع تحت علمها كل أقطار القارة عملا بالمثل القائل : « الاتحاد قوة والتفرق ضعف » .

وبعد أخذ وردّ بين حكومات الدول الأفريقية ذات السكرتيرية الدائمة ، وميثاق اعترف بالسيادة الكاملة لكل الدول الأعضاء على أراضيها ، وعدم تدخّلها فى شئون الدول الأخرى .

وتشكلت فى المؤتمر لجان عديدة للعلم

والثقافة، للاقتصاد والشئون السياسيةولمساعدة حركات التحرير فى الأراضي الأفريقية التى مازالت تحت الاستعمار .

وبما أننا فى عصر الحقائق ، وحيث أن اخفاء الحقيقة ، حتى وان أمكن لا يساهم فى حل المشاكل ، فان من الأفضل الاعتراف بفشل المنظمة فى المهام التى أسندت اليها .

والحق أن الفشل كان محكوماً عليها منذ البداية لعوامل كثيرة منها : الفقر الفكري لدى الأفريقيين ، ذلك لأن معظمهم لم يصلوا فكرياً الى مستوى القومية الفطرية على نطاق البلدان التى يحكمونها . وفكرةمنظمة الوحدة الأفريقية تفترض فيهم أن يكونوا فى مستوى الأممية على نطاق القارة أو العالم وشتان ما بين الأمرين من فروق .

ومنها الفقر الاقتصادي ، فمن المعلوم أن كل الدول الأفريقية متأخرة اقتصادياً وثقافياً ، وبالتالى فهي محتاجة الى مساعدات خارجية عاجلة

للنهوض بالتزاماتها فى ميادين الحياة المختلفة .

وبما أنه ليس فى استطاعة أيَّة دولة أفريقية تقديم العون اللازم للدول الأعضـاء الأخرى ، فقـد رأى أغلب الأعضـاء أن المنظمة لا تملك حلولا لمشاكل بلدانهم الملحة ، ومن ثم اتجهوا الى الدول الغنية ، التماساً للعون المـادي على أسس ثنائية أو اقليمية والدول الغنية راغبة بطبيعة الحال عن قيام وحدة أفريقية ذات فعالية على سير الأحداث .

يضاف الى ذلك اختلاف أنظمة الحكم فى القارة، فمن ملكية مطلقة الى جمهـورية رأسمالية ، الى عسكرية دكتاتورية الى اشتراكية متطرفة .

وخلاصة القول أن العوامل السـابقة مجتمعة قد جعلت منظمة الوحـدة الأفريقيـة محـدودة الامكانات ، وعاجزة عن معالجة مشـاكل القارة معالجة علمية ذات أثر موجه لاقتصاديات القارة وسياستها .

صحيح أن المنظمة تمد حـركات التحـرير فى

البلدان الأفريقية المستعمرة بالعون المادي والمعنوي . وهذه مسألة لا ينبغى التقليل من شأنها .

وصحيح أيضاً أن المنظمة تنظم مؤتمراً سنوياً للملوك ورؤساء القارة حيث تتاح لهم فرص عظيمة للتعارف والتشاور وتبادل وجهات النظر حول قديم الأمور وحديثها . وتلك مسألة أخرى ذات أهمية كبيرة .

غير أن منظمة الوحدة الأفريقية فشلت فى تحقيق تبادل تجاري وثقافي وتعليمي بين أقطار القارة .

وفشلت فى خلق مواقف اقتصادية وسياسية أفريقية موحدة ازاء القضايا العالمية . وفشلت أيضاً فى حل المنازعات بالطرق السلمية بين أعضائها وفوق هذا كله فشلت المنظمة فى جعل حلم الولايات المتحدة الأفريقية حقيقة واقعة .

ثالثاً ـ الانقلابات العسكرية :

لجأت الشعوب الأفريقية الى الانقلابات

العسكرية بعد أن يئست من الحياة تحت الأنظمة البرلمانية السياسية ، وبعد خيبة أملها في منظمة الوحدة الأفريقية ، كما رأينا في الفصلين السابقين .

والواقع أن أسباب معظم الانقلابات العسكرية كانت محلية كما أنها أيّ الانقلابات حظيت بتأييد شعبي منقطع النظير لرغبة الجماهير الأفريقية فى تحقيق حياة أفضل وتقدم أسرع تحت قيادة عسكرية وطنية وذات الجرأة على اتخاذ قرارات هامة عجز عنها الساسة المدينون لاعتبارات سياسية محلية كانت أو عالمية . وقد بدأت موجة الانقلابات العسكرية في أفريقيا عام ١٩٦٥م-١٩٦٦م .

ففى هذا العام أطاحت الانقلابات العسكرية بالحكومات المدنية فى كل من الجزائر والكنغو وجمهورية أفريقيا الوسطى ونيجيريا وغانا على التوالى .

ثم تتابعت الانقلابات حتى شملت ثلاثين

دولة من الدول الأفريقية المستقلة البالغ عددها ٤٥ دولة .

وقد نجح قادة الانقلابات العسكريون فى حفظ الأمن ، وخلق وحدة قومية مؤقتة ، كما قاموا بنشاطات كثيرة استهدفت تجنيد كل الموارد المادية والطاقات البشرية لتطوير أوطانهم اقتصادياً واجتماعياً وثقافيا .

غير أن مشاكل أفريقيا كانت ، ولا تزال أعقد من أن تحل بالقرارات الجريئة التى تبحث فى عشية وضحاها ، وأعمق جزوراً من أن تزال بالخطب المعسولة والحماس الوطني كما تمنى الكثيرون .

فالثالوث الاجتماعي الخطير والضارب أطنابه فى أفريقيا لا يمكن استئصاله بسهولة وفى سنوات قليلة ، وكذا الخلافات المحلية قبلية كانت أو دينية أو اقليمية مسألة نفسية ذات جزور تاريخية عميقة فى وجدان الشعوب ، ولا يمكن القضاء عليها أو الحد من خطورتها بسهولة وفى

سنوات قليلة .

ومما ضاعف مشاكل قادة الانقلابات العسكريين فى أفريقيا اعتقاد المدنيين خطأ أو صواباً بأن الانقلاب العسكري انما هو اغتصاب السلطة منهم قهراً وجهراً .

وترتب على هذا الاعتقاد محاربة المدنيين للأنظمة العسكرية أو سلبيتهم تجاهها فى أحسن الفروض . على أن معظم قادة الانقلابات العسكرية لم يكونوا ملائكة منزهة من الأطماع والأخطاء .

فقد عمل بعضهم عمداً على كبت الحريات وخنق الحياة العامة وتفخيم الخلافات المحلية ، مسببين فى ذلك لأوطانهم شللا اقتصادياً وجموداً فكرياً وهروب المتعلمين الذين كان الواجب أن تقوم النهضة على أكتافهم .

وعلى كل حال فان الفشل كان محكوماً على الانقلابات العسكرية فى أفريقيا منذ البداية

وفعلا فشلت لأن المشاكل المعروضة عليها كانت فوق طاقتها نظراً لقلة الامكانات المادية والمعنوية وهذا اذا صرفنا النظر عن عدم توفر حسن النية لدى قادة الانقلابات العسكريين ، وجهلهم المطبق عن شئون حكم الشعوب ومشاكل التنمية بحيث ينطبق عليهم المثل القائل (رب مصلح مفسد) .

أ ـ الحكم العسكري للشعوب :

الواقع أن الحكم العسكري رغم أنه عمّ معظم شعوب العالم الثالث ورغم أن مؤلفات كثيرة وأكاديمية قد كتبت عنه ، أقول أنه رغم هذا مازال فى قائمة الأمور التى يصعب ادراك حقيقتها الا بالمعايشة معها والممارسة العملية لها . على أنه فى امكاننا تقريب صورة الحكم العسكري الى الأذهان بالمقارنة الآتية بين الحياة المدنية والحياة العسكرية :

الحياة المدنية فى مجالات العمل تقوم على المناقشة وتبادل الآراء وتفنيد الأفكار بلغة

الأرقام بغيـة التوصل الى حلول سليمة للمشاكل المعروضة .

ومثل هذا المنـاخ الحرّ لمقارعة الحجة بالحجة تسبقه خلفيات تعليمية تربوية نفسية ومشتركة لكل المتصدين لمعالجة القضية قيد البحث .

والحيـاة العسكرية هي الأخرى لها تعاليمهـا وتربيتهـا وقوانينهـا ودوراتهـا التدريبية ، وكلها قائمة على القضاء .. القضاء على العدو .

وان وجد شيء من المناقشة فى الحياة العسكرية فان أغلبه لا يخرج عن دائرة النظرية الرئيسية فى تحدب العلاقة بين العساكر (أطع من فوقك وأمر الذى تحتك) .

ثم تحل المصيبة على النحو التالى :

بمجرد استيلاء العسـكريين على الحـكم بهذه الخلفيـات المذكورة تنعدم المناقشـات فى البـلد المبتلى بين الحـكام العسكريين وبين المدنيين رغم المحاولات المستميتة من الطرفين فى الحفـاظ على

جعل المناقشة والحوار حول المصلحة العامة .
وذلك لأن القادة العسكريين أولا غير قادرين على فهم قيمة المناقشة الحرة لقضايا القومية . فهم معذورون فى هذا الكون المربى بالفطرة عدواً لما جهل ولأنهم ثانياً ليس لديهم اعداد تعليمي أو نفسي لقبول المناقشة بحكم تربيتهم العسكرية التى سبقت الاشارة اليها .

وتكون النتيجة الحتمية لهذا المناخ المظلم احلال الخراب والدمار بالبلد المبتلى بالحكم العسكري .

وخراب البلد كما تعلم يعنى قيام معارضة شعبية والمعارضة فى نظر العساكر عدو ، ومن هنا تظهر أهمية التعاليم العسكرية القضاء ... القضاء ... القضاء على العدو الذى هو الشعب فى هذه المرة .

ب ـ مجلس الوزراء العسكري :

والواقع أن الحكم العسكري للشعوب رغم أنه

تجربة قاسية ومحنة انسانية الا أنه لا يخلو من مشاهد مضحكة ، وقديماً قالوا : (شر البلية ما يضحك) .

فمثلا التشكيل الوزاري يتم غالباً على الوجه التالي :

١ ـ جنرال « أ » من ضباط الهندسة العسكرية قسم الألغام والمفرقعات وهو الذى أحدث خسائر جسيمة فى خطوط التموين للعدو فى الحرب الأخيرة ، وزيراً للتربية والتعليم والبحث العلمي .

ومهمته الجديدة نظراً للمرحلة الثورية التى يجتازها الوطن انما هي اختيار أفضل المناهج التربوية وحل مشاكل المعلمين ونقص الكتب المدرسية ، وربط عملية التعليم باحتياجات البلد بصفة عامة .

٢ ـ جنرال «ب» من رجال البحرية العسكرية قسم الضفادع البشرية والشهود له بالكفاءة فى ملاقاة العدو تحت أعماق البحار ، وزيراً

للصحة . ومسئوليته الجديدة نظراً للمرحلة العصيبة الراهنة التى يمر بها البلد ليست مقصورة على استئصال الأوبئة المختلفة والأمراض المزمنة فحسب ، بل انه مطالب بابتكار أدوية جديدة تكسب النظام الثوري سمعة عالمية .

٣ ـ الرائد «ج» كابتن فريق كرة السلة بالقوات المسلحة الذى بفضل جهوده وتفانيه فى العمل أحرز الفريق القومي عدة ميداليات ذهبية فى محافل دولية : وزيراً فوق العادة للبنك المركزي الوطني .

وواجباته الحالية نظراً للظروف التاريخية التقدمية التى يعيشها الوطن ليست محصورة في ابداء رأي سليم ونهائي فى السياسة النقدية الدولية وملابسات التجارة العالمية وأنظمة الصرف الثابت والسعر الحر ، بل انه مسئول عن استحداث نظريات نقدية جديدة ومستمدة من البيئة المحلية يكون فيها مفخرة للوطن ومنفعة للبشر أجمعين .

٤ ـ السيد «د» عميد متقاعد بقوات الأمن وذو خبرة طويلة فى معاينة الجريمة وأخذ البصمات ، وزيراً للزراعة والثروة المعدنية .

وانها لفرصة عظيمة للعميد «د» لكي يختتم رحلة حياته التى أوشكت على الانتهاء بحل أزمة الغذاء فى وطنه بما سيجدده من ثورة صناعية تكنولوجية فى الزراعة ، وبما سيستخرجه من باطن الأرض من كنوز ومعادن لا يعرف هو من أسمائها الا قليلا .

٥ ـ الملازم «ز» زوج ابنة الفلان ومازال جندياً عاملا فى فرقة الآليات قسم مدفعية الميدان . وقد أظهر موهبة منقطعة النظير فى ادارة دفة العمليات فى المناورات الأخيرة علاوة على الميدالية الذهبية التى حصل عليها فى البطولة العالمية للعساكر فى دقة التصويب فى السنة الماضية ، وزيراً للخارجية .

والأمل كبير أو قل ليس هناك أدنى شك فى أنه سيتمكن من تطويع سياسة الشرق والغرب

لصالح الوطن ، والضحك على ذقــون كافة دهاة الدولة والدبلوماسيين .

الى آخـــر قائمـــة الوزراء العســـكريين الدين يؤمرون ويتواصـــون فيما بينهم دائمـــاً باتخـــاذ القرارات الهـــامة بأنفسهم وعـــدم الاستماع الى المدنيين الرجعيين الساخطين على الحكم العسكري. بقي أن نعرف أضرار هذا التشـــكيل الوزاري العجيب لا تقف عند حـــد تدمير هـــذه المرافـــق الهامة كما يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ، بل انها تمتد لتقضى على ما هو أهم من هذا كله ألا وهو احترام التخصصات المهنية والتعليمية .

ولذا يعتبر من الأمور العـــادية عند الشعوب الخاضعة للحكم العسكري أن ترى أصحاب الحرف كالخياطين والسائقين والحـــلاقين وهم يتنافسون فى احتلال وظائف السلك السياسي على اختلاف مستوياتهـــا . وأطبـــاء ينقـــلون الى مؤســـسات تجارية ، وبدواً أميين يفتتحون دورات تدريبية للجامعيين ، ورجالا مدنيـــين يشتغلون فى بنـــاء

الجيش واستيراد الأسلحة المختلفة رغم أنهم لا يكادون يميزون بين صهاريج المياه والمدافع الا بشقّ الأنفس .

وليس فى ذلك ما يدعو للدهشة ، لأنه مادام قد قضى على احترام التخصصات المهنية والتعليمية وكذا فكرة الشخص المناسب فى المكان المناسب ، اذن فلا أحد أفضل من الآخرين بالفطرة .

وبعد فشل الانقلابات العسكرية في تحقيق الآمال التى علقت عليها الشعوب الأفريقية كان لا بد للأفريقيين من البحث عن مخرج آخر من المشاكل المتراكمة عليهم والفقر المتوارث قرناً . فلاح الأمل في الاشتراكية .

رابعاً ـ الاشتراكية في أفريقيا :

بعد اخفاق الشعوب الأفريقية فى تحقيق آمالها تحت ظل الاستعمار قبل تحررها منه ، وتحت أنماط الديمقراطية الغربية عقب

الاستقلال وكذا فى عهد الجنرالات العسكريين الذين استولوا على الحكم اثر فشل البرلمانات السياسية فى انجاز طموحات الأمم الأفريقية كما رأينا فى الفصل السابق .

فنقول بعد هذا كله ، صار من المنطقي أن تلجأ الشعوب الأفريقية كغيرها من الأمم المتأخرة الى الاشتراكية كسفينة النجاة لها من مشاكلها التى بدت كموجات متلاطمة وسط بحر هائج لا يعرف له برء الأمان .

وساعد على هذا الاتجاه جهل الأوطان الأفريقية عن حقيقة الاشتراكية من جهة ، والدعاية المدروسة والجبارة التى أطلقها الاتحاد السوفياتي عن الاشتراكية مسخراً لها كل طاقاته المادية والمعنوية ، حتى بدت روسيا وسط غبار دعايتها صديقة الأمم المظلومة المستضعفة ردحاً طويلا من الزمن من جهة أخرى .

من هنا كانت بداية المحاولات الاشتراكية في الأقطار الأفريقية وقبل الحديث عن مصير

الشيوعية فى أفريقيا ، أود أن أسجل كلمات مختصرة عن الاشتراكية ، تبياناً للحق والحقيقة ، باذلا وسعى فى احترام أمانة القلم وتجنب الكذب والافتراء .

الفصل الخامس

الشيوعية والاشتراكية

انهما كلمتان تدلان لغـوياً على معنى واحـد تقريباً ، وهو جعل شيء مشاعاً أو شركة بين اثنين أو أكثر .

وكذا المفهوم السياسي للكلمتين واحد نظرياً وعملياً ، أو قُل انهما كلمتـان مترادفتـان في القـاموس السـياسي أسـلوباً وغاية ، شـكلا ومضموناً .

والاختـلاف الوحيد بين الـكلمتين في نظـر الماركسيين كامن في ظروف مرحليـة بحتـة . اذ يذهبون الى القول بأن الشيوعية انما هي نهـاية مطاف الاشتراكية ، أو بعبارة أخرى أن نهـاية الاشتراكية هي بداية الشيوعية ، على أن يكون المعيـار الفـاصل بين المرحلتين مدى انصـياع الجماهير الشعبية للحزب الشيوعي في بلد ما ودرجة تقديسها وانقيـادها لشخصية القـائد الحـاكم وأوامره .

وقد أثبتت تجارب الحركة الشيوعية فى كل المجتمعات التى مورست فيها ، أثبتت بما لا يدع مجالا للجدل أو الشك بأن مفهوم الاشتراكية والشيوعية واحد فى التفكير النظري وفى التطبيق العملي على السواء . فكلتاهما تغنى عن الأخرى أيهما تأخذ تكفيك عن الثانية .

ولك أن تسأل مادامت الشيوعية والاشتراكية اسمين لمذهب واحد ، فما السبب فى اعتبار الناس الاشتراكية والشيوعية مذهبين مختلفين ؟

أقول لك أن وراء هذا الاعتقاد الخاطىء لدى الناس مجهودات جبارة وقصة كبيرة خلاصتها أنه عندما اقترنت الشيوعية ب (اللادين) فى أذهان الشعوب تفتقت عقول الماركسيين عن حيلة بارعة وفريدة فى نوعها وهي ايهام الناس بأن ثمة مذهباً اسمه الاشتراكية لا يخالف الدين والخصائص الحضارية الأخرى وأن لعنة الله على الشيوعية .

ومن هنــا بدأ التبشير بالاشتراكية والتنديد بالشيوعية ويالها من مغالطة كبيرة وتحايل زكي على الشعوب . على أن الدول الشيوعية نفسها لم تسلم من أضرار هذه المغــالطة . اذ سميت أمم كثيرة فى العالم نفسها (بالاشتراكية) دون أدنى تطبيق لمبــادىء الاشــتراكية وتمكنت بذلك من الحاق خسائر جسيمة بخزائن الدول الشــيوعية تحت شعار التعاون بين الأقطار الشيوعية .

أ ـ دعائم الاشتراكية :

ينبغى بعد ذلك أن نعــرف أن جوهر المذهب الاشتراكي يقــوم على عــدة مبــادىء رئيســية نذكرها كما هي منصوصة فى كتب الشيوعية دون اضافة منا أو حذف :

أولا : حظر الملكية الخاصة بكل أنواعهــا من أرض وعقــارات ومؤســســات ومصــانع وذلك بسيطرة الدولة على كل وسائل الانتاج والمرافق المختلفة للحياة .

ثانياً : انكار وجود الله والقضاء على الأديان باعتبارها فى نظر الشيوعية مخدراً للشعوب .

ويستتبع ذلك بطبيعة الحال القضاء على كل ما تعارف عليه الناس من قيم أخلاقية ومُثل سامية كالخير والحق والعدالة .

ثالثاً : سيطرة الحزب على كل وسائل الاعلام والنشر والتأليف والتفكير ، لخنق الرأي المخالف واسكات المعارضة من جهة ، ولتيسير مهمة اجراء عملية غسيل مخ شاملة للشعب بغية خلق رأي عام مطيع موحد ومجرد من كل المقاييس والمعايير المساعدة على المقارنة والتقييم حتى يختلط عليه الأمر ، فيصبح الحرب فى نظره ، أى الشعب أمناً وسلاماً ، والفقر تقدما ورفاهية والكذب صدقاً وحقيقة ، والعبودية حرية مطلقة ، والتعاسة سعادة وهناء . (من أقوال جورج أورويل فى كتابه ١٩٨٤م) .

رابعاً : تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق توزيع الدخل العام على المواطنين ، كل

بحسب عمله وحاجته .

هذا ما قاله الشيوعيون فى خطبهم وكتبهم نظرياً ، وانها فكرة جميلة طالما تطلعت اليها الانسانية . غير أن الممارسة العملية للشيوعية لم تجد مناصاً من تحويل فكرة توزيع الانتاج على الناس بالمساواة الى توزيع الظلم عليهم بالمساواة حتى فى مجال الاقتصاد الذى تقوم على وحدة الاشتراكية . كيف ذلك ؟

بما أن الملكية الخاصة محظورة فى ظل الاشتراكية ، فان الحزب الشيوعي فى حقيقة الأمر هو مالك كل شيء ومطلق التصرف فى توزيع الأرزاق والانتاج على الشعب ، شريطة أن يحتفظ لنفسه نصيب الأسد من الثروات القومية . وليس فى ذلك أى ظلم فى اعتقادهم ، مادام لم يؤخذ من شخص معين شيء ما لانعدام الملكية الخاصة أصلا .

ولعل هذا هو السبب فيما ظهر لدى قادة الأحزاب الشيوعية قاطبة من حياة الترف والاسراف والأبهة لم يرو لها التاريخ نظير .

هذا فى الوقت الذى يعتبر فيه أكل الخبز بالماء مسألة عادية عند شعوبهم .

وعلى العموم فلا يخفى على أهل البصيرة وأرباب المعرفة ما يصاحب بالضرورة تنفيذ المبادىء الشيوعية السالفة الذكر فى مجتمع ما ، من ظلم وابادة جماعية وقهر عام واضطهاد شامل لكل فئات الشعب .

وما أدراك ، وقاك الله كل شر ، ما القهر والابادة والاضطهاد ؟ لا مانع من التخيل والتفكر فى ذلك .

ب ـ أسباب التمسك بالشيوعية عند الشعوب النامية :

منذ قيام الاتحاد السوفياتي كأول دولة اشتراكية عام ١٩١٧ م وأصحاب الأديان السماوية وأرباب الأقلام النزيهة وأهل الفكر يتكاتفون على تبصير أمم الأرض بخطورة المذهب الاشتراكي على الأديان وحقوق الانسان وحرية الفكر .

وكان العالم البريطاني جورج أورويل أفضل المحذرين وأكثرهم صدقاً ، وأقربهم الى تجسيد حقيقة المآسى البشرية المتولدة عن تطبيق الشيوعية فى المجتمعات الانسانية . وذلك فى كتابيه « حديقة الحيوانات »
و «١٩٨٤م» .

ومع ذلك لم يزل للشيوعية أتباع وأنصار ومريدون فى كل أقطار المعمورة . فما هو السبب فى عدم اقتناع الناس بكل ما قيل وكتب ضد الشيوعية ؟

قد تكثر الأسباب غير أنى أذكر ثلاثة :

أولاها : الدعاية المضادة : سخّرت الدول الشيوعية كل امكاناتها المادية والمعنوية لفنّ الدعاية ، كما أنها اكتسبت خبرة طويلة فى تضليل الشعوب . وساعدتها هذه وتلك ، على ابتكار ألف حيلة وحيلة في الكتب والصحف والمجلات والروايات ، لخداع الناس وستر

عيوبها واخفاء نواياها السيئة .

والناس عادة لا يجدون مقدرة علمية كافية ووقتاً واسعاً للتمييز بين الحق والباطل وسط الدخان المتصاعد من نيران الدعايات المتناقضة والمتعارضة فى العالم .

ولذا يظل من اعتنق الشيوعية منساقاً وراءها حتى يجد ذاته أمام مشنقة نصبتها له الشيوعية نفسها . وما قصة مقتل رئيس أفغانستان السابق والأسبق الشيوعيين (نورتراقي وحفيظ الله أمين) على يد روسيا ببعيدة عنا .

ثانيتها : التجربة غير قابلة للنقل :

ان أغلب من كتبوا عن مساوىء الشيوعية هم من الذين عاشوها وعانوا من قساوتها وتعرضوا لأهوالها ومن ثم حاولوا نقل تجربتهم المأساوية المريرة ، منذرين ومحذرين ، الى غيرهم ممن لم يجابهوا ظروفاً مماثلة وهنا مكمن الصعوبة ، صعوبة عدم قدرة الانسان على نقل تجربته الخاصة بكل عمق معانتها الى الآخرين لأنه شتان

بين أن ترى أناساً يعذبون ، وبين أن تكون عرضة للتعذيب . شتان بين أن ترى قوماً حظر عليهم حرية العبادة والملكية والتفكير ، وبين أن تكون واحداً من هؤلاء القوم .

حقيقة أن التأثر موجود فى كل هذه المواقف . غير أنه يتفاوت فى الدرجات من حيث تفاعلات العواطف البشرية والمشاعر الانسانية التى تترك آثاراً نفسية عميقة وبصمات جسمانية واضحة على من يقع عليه الخطر أكثر من المتفرج .

وقديماً قال شاعر عربي : (ليس من رأى كمن سمعا) . على أننا لا نلغى من حسابنا فى معرض الحديث عن أسباب عدم اقتناع الناس بالتحذيرات المتكررة لهم من ويلات الشيوعية ، طبيعة الجحود وعدم التصديق التى فطر عليها الناس .

ثالثتها : الغضب والكراهية :

ان دراسة تحليلية لخلفيات أنصار المذهب الشيوعي قديماً وحديثاً دلت دلالة قاطعة على أنه

مبدأ قائم على الـكراهية والغضب والرغبـة فى الانتقام .

فاذا صرفت النظر عن اليهودي الألماني كارل ماركس الذى أسس الشـيوعية أصلا لينتقم من الرأسماليـة الألمـانية التى خطفت منه بمالهـا خطيبته ، واكتفيت بالقاء نظرة سريعة على سجل حياة كل دعاة الشـيوعية فى الأقطـار العربيـة والاسلامية تجدهم جميعاً من الساخطين الغاضبين لما فقدوه من مال أو جاه أو علم .

وما الشعارات البراقة التي يطلقونها كالعدالة الاجتماعية وحقوق الطبقة العاملة سوى وسيلة لجـذب الجمـاهير الشـعبية التى تعد فى الفـكر الشيوعي جسر العبور الى السلطة فقط .

بمعنى أن هذه الفئة ، فئة دعاة الشيوعيـة ، تعرف جيداً شرور الاشتراكية وويلاتها بيد أن الغضب أعماها ، وسيطرت عليهـا الـكراهية ، وتمكن فى نفسها الحقد ، ففقدت المنطق والوعي ،

شأنها شأن من يقدم على قتل شخص ما مدفوعاً بنزعة الغضب .

وأخيراً فان عيني لم تقع فيما كُتِبَ بالعربية عن الشيوعية على شيء أكثر صدقاً أو أقرب الى تصوير حقيقة نفسية دعاة الشيوعية من تلك الكلمات التى جاءت فى مقال للأستاذ طارق حجي بجريدة المدينة يوم٢٩/٣/١٤٠٠هـ تحت عنوان (الشيوعية مذهب أم طبع) .

يقول الأستاذ طارق حجي :

ليس بين دعاة الشيوعية من لم يجد فى هذا المذهب ضالته وغايته . فهو اما المذهب الذى يبرر له نهمه الجنسي الذى يريد أن يعربد فى فوضى عارمة بلا ضابط ولا رابط .

أو هو المذهب الذى يحطم الأسرة ويريحه من مشقة احساسه المؤلم بأنه ابن أسرة محطمة شوهاء ينظر اليها المجتمع باستهجان وازدراء ، ولن يريحه الا تحطيم هذه النظرة بتحطيم اطارها العام بأن يصبح الجميع على شاكلته .

أو هو المـذهب الذى ينعش الآمـال في نفس خامل كسلان بأن يتساوى فى المال مع الأذكياء من ذوى النشاط والهمة .

أو هو المذهب الذى يحيى فى صـدر الوضيع الذى يرقد فى درك المجتمع الأسفل بسبب وضاعته الآمال فى أن يتسـاوى مـع أصـحاب المقـامات الرفيعـة لا بصعوده الى العـلا بل بجـذبهم الى الحضيض .

ان الشيوعية ليست مذهباً بقدر ما هي ملجأ لشذاذ الأخلاق ومشوهى الطباع فهي طبع أكثر منها مذهباً .

والآن لعلك راغب فى معـــرفة كيف تبـــدأ المسرحية المأساوية لتطبيق الاشتراكية فى بلد ما ؟

أقـول لك أن هـذه المسرحية تتكون عادة من عدة فصول يطلق عليها الشيوعيون بـ (الخطوات المباركة) .

فبعد اعداد طويل لاسقاط الحكومة الشرعية

بخلق مشاكل سياسـية ومحن داخليـة وعرقلة الحـركة العمرانيـة ، يزاح الستار عن الفصل الأول فاذا بمجموعة من الساخطـين ، مدنيـين كانوا أو عسكريين تسيطر على الحكم .

وسرعـان ما يلتـف حولهـا كـل الناقمـين والغاضبين على اختلاف أسـباب سـخطهم ، لأن الطيور تقع على أشكالها كما يقال .

والمشاهد فى الفصـل الثـاني أكثر اثارة من الفصل الأول ، اذ تنصب فيـه المشـانق لرجال الدين والعـلم والمـال والقضاة ، ليحل محلهم اللقطاء والساقطون .

وبعدها تتحرك مسـيرة المجتمع الاشـتراكي بقيادة الغوغائيين والفاشلين الى المصـير المجهول والشقاء المستديم بمشـيئة الله لانحـرافهم عن سنته فى الخلق والحياة .

ولك أن تسأل اذا لم تكن الاشتراكية مذهبـاً سـليماً فـكيف اسـتطاعت الدولـة الفـلانية الاشتراكية انتاج ما نراه من أسلحة ومصانع ؟

أقول لك ان عظمة الأمم ورفاهيتها لا تقاس بما تمتلكه من أسلحة وآلات عصرية أخرى بقدر ما تقـاس ما تمنى لأفـرادها من حرية العقيدة والعمل والفكر .

فنحن لا تهمنا الأشياء المـادية ، على قلتها فى البلدان الشيوعية ، بقـدر ما تهمنـا انسـانية الانسان فى البـلد الفـلاني . بمعنى ماذا يحس الانسان فى ذلك البلد ؟ وكيف ينظر الى نفسـه باعتباره أدرى الناس بحقيقة الأوضاع فى وطنه . حكى لى عدد غير قليل من الطلبـة الصـوماليين الذين أتموا تعليمهم فى روسيا قصة تكاد تكون صورة صادقة لشـعوب الشعب الروسي نفسـه تجاه الشيوعية .

قالوا : ان زملاءنا فى الدراسـة من الطلبـة الروسيين كانوا حريصـين على الاتصـال بنا فى سرية تامة قبيـل مغادرتنـا لوطنهم ، ليحملونا الرسالة المتضمنة فى الحوار الآتي الى الانسـانية جمعاء :

الطالب الروسي : صديقى فلان ـ هل فكرت يوماً فى تقديم خدمة للانسانية ؟

الطالب الصومالي : نعم ، ولن أتأخر فى تلبية طلبك .

الطالب الروسي : بلغ أمم الأرض التعاسة والعذاب اللذين نحياهما .

الطالب الصومالي : (مشيراً الى قبضة النظام الشيوعي وقنابله) ولكن يا صديقى ان هذا لن يغير من واقع أمركم شيئاً .

الطالب الروسي : أعرف ذلك ولكن على الأقل أنقذوا شعبكم من ويلات الشيوعية .

وبعد فاذا كان هذا لسان حال أبناء روسيا ذاتها فماذا عسى أن يكون حال الأوطان الواقعة تحت احتلال روسيا فى آسيا وأوربا وأفريقيا ؟ لا مانع من التفكير فى ذلك . مبث

حقاً ان الحديث عن أيّ جانب من جوانب

الشيوعية من شأنه أن يعيد الى الذاكرة الآية الكريمة : (وفى ذلكم بلاء عظيم) فهل من معتبر ؟

بقي أن نعرف أن مردّ فشل الشيوعية فى الحياة العملية ليس أسباباً عارضة أو عوامل خارجية وانما هو نتيجة حتمية للخطأ الفاحش الذى تقوم عليه النظرية الشيوعية فى تفسير الانسان كيف ذلك .

يقول المذهب المادي الذى هو قوام الفلسفة الشيوعية ان كل ما ندركه بحواسنا الخمسة مقبول ومرضيّ عنه كحقيقة ملموسة وقابلة للدراسة والبحث والنقاش وكل ما لا ندركه بحواسنا مرفوض عقلياً ومردود علمياً .

واستلزم هذا التفسير الخاطىء للحياة الاهتمام والاعتراف فقط بالجانب المادي (الجسد) للانسان بهذا والغاء جانبه الروحي ديناً وفكراً وعاطفة بهذا المفهوم الخاطىء أخذت الشيوعية الانسان الى المعمل أى الحياة العملية فاذا هو شيء آخر ومختلف تماماً عما قيل عنه نظرياً ،

واذا بمطالب الجانب المادي فيه تتضاءل أمام رغبات الجانب الروحي فيه .

ومن ثم لن تجد الشيوعية مندوحة من تحويل جنة الديمقراطية البرولتارية التى وعدت بها الطبقة العاملة الى قواعد بوليسية ومراكز ارهابية ووكرات جاسوسية لاسكات صوت الشعب بفوهات البنادق .

جـ ـ فشل الاشتراكية فى أفريقيا :

تكاد أسباب فشل الشيوعية في كل أنحاء الكرة الأرضية تكون واحدة . وذلك لأن الشيوعية تحمل فى طياتها عوامل فنائها لتعارضها مع فطرة الله فى الحياة ، ومحاولاتها اليائسة لطمس معالم الحق والحضارة والخير التى توارثتها البشرية عبر آلاف من السنين . وقد حدث اخفاقها على النحو الآتي :

بمرور الزمن خفت حدة الحماس للشيوعية عند الشعوب التى خدعت بها ، فاستفاق الناس

من تخدير دعايتها المزيفة المعرضة ، وتفتحت أعينهم على واقعهم المأساوي المفجع ، وتجلت لهم حقيقة الشيوعية ساطعة كالشمس فى رابعة النهار .

ومن ثم انقلبت أمم الأرض على الشيوعية أنصارها بكل عنف وكراهية وشراسة . ففى أفريقيا مثلا تم القضاء على الشيوعية فى كل من مصر والسودان والصومال على التوالي .

وكلها من أوائل الدول الأفريقية التي انخدعت ببريق الشيوعية . وهذا أمر بديهي ، اذ أنه ما كان لوباء مدمر للأنفس والأديان والأموال كالشيوعية أن يستمر أكثر من ذلك .

والحق أن الشيوعية انكمشت عالمياً كمذهب بَشَّرَ بانقاذ الانسانية ، وانحسر مدها فى الأقطار الشيوعية القديمة التى تشكو هي نفسها من أزمة انسلاخ شعوبها من الشيوعية .

غير أن الشيوعية تمخضت عن ظهور قوة

غاشمة ذات خطر محقق على العالم وهي (روسيا) .

د ـ روسيا فوق الجميع :

كلنا نعلم أن الاتحاد السوفياتي احتل فى السنتين المنصرمتين عدة دول أفريقية وآسيوية ، مستخدماً فى ذلك بقوات مرتزقة من كوبا فى بعض تلك البلدان ، ومستعيناً بحكومات عميلة له فى بعضها الآخر ونعرف أيضاً أنه استولى على أفغانستان بقواته العسكرية المسلحة فى وضح النهار .

وبلغ مجموع اللاجئين من تلك الأقطار عشرة ملايين نسمة حسب احصاءات وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة . وهذا الرقم ، كما ترى ، مفجع ومفزع معاً ، رغم أنه فى مرحلة أولية نظراً لتصاعد الحروب فى الأوطان التى فر منها هؤلاء اللاجئون بما ينذر بزيادة مضطردة فى أعداد تدفق اللاجئين وتساقط الشهداء فى

ساحات القتال دفاعاً عن أوطانهم ضد الاحتلال الروسي .

أقول أن هذه الأحداث أثارت فى نفسى رغبة قوية فى اجراء المقارنة من حيث السلوك والأهداف بين حكومة روسيا فى أيامنا هذه .

واليكم نتيجة المقارنة :

أولا : أوجه الشبه بين الحكومتين :

ـ رغبة جامحة وجنونية فى بسط النفوذ والسيطرة على العالم .

ـ ضرب الرأي العام العالمي وجميع القوانين والأعراف الدولية بالحائط .

ـ الهاء الشعب بحروب جانبية كمحاولة يائسة لحل المشاكل الداخلية بأمجاد فتوحات خارجية .

ـ فتح معسكرات التعذيب والاعتقالات لكل معارضى النظام الحاكم .

ـ طغيان نزعة التكبر والغرور بما يوفر لدى

النظام الحاكم من رجال وعتاد حربي . ومن شأن هذه النزعة الاستخفاف بقوة أمم الأرض مجتمعة .

فقدان الرحمة الانسانية وعدم الاحساس بمعانات البشر على الاطلاق .

ثانياً : نقاط الاختلاف بين النظامين المذكورين :

ألمانيا : (ألمانيا فوق الجميع) والروسيون لم يصرحوا بعد بأنهم فوق الجميع أو شعب مختار ، وان كانت أفعالهم تغنينا عن مثل هذه الشعارات .

ألمانيا النازية أعلنت الحرب ضد الكل وفى جميع الجبهات، والروسيون يسيرون ، مستفيدين من تجارب هزيمة ألمانيا ، على مهل ، شريطة أن يبتلوا بلدين أو ثلاثة فى كل سنة .

هذا كل ما وجدته من فروق بين حكومة روسيا اليوم وحكومة أدولف هتلر ، وكلها فروق ، كما

ترى ، فى التكتيك والوسيلة لا فى الأهداف والسلوك . وكلى أمل فى أن أكون مخطئاً فى هذه المقارنة والا فان الكارثة واقعة لا محالة .

وأخيراً ، فليكن فى علم القارىء أن كل ما قلته عن الشيوعية لا ننفى أن ثمة فى معظم أقطار العالم الثالث أوضاعاً قاهرة وظالمة لا يمكن تحملها أو السكوت عليها بيد أن الشيوعية ليست بديلا طيباً على الاطلاق .

١

الخـــاتمة

من باب تحصيل الحـاصل القول بأن أفريقيا متأخرة فى جميع مجـالات الحيـاة بالمقـارنة الى الدول المتقـدمة وهي فى نفس الوقت قارة بكر غنية وشاسعة بالقياس الى الأمم المتطورة أيضـاً وتلك مفارقة عجيبة .

ومبلغ علمي أن تأخر القارة الأفريقية مردّه تأخر ظروفها التـاريخية والحضـارية قديمـاً ، مضـافاً الى ضعف مسـتواها الثقـافي والعلمي والاقتصادي حديثاً .

فالمشكلة الحقيقيـة عند الأفريقيين انمـا هي عدم وضوح الرؤية فأصل المتـاعب غير معروف والطريق الى حلها مجهول .

وبناء عليـه باتت معظـم طاقاتنـا المـادية والمعنوية عقيمة كأنهار منصبة فى بحار وصارت

أعمالنا شبيهة بملاكمة جماعية فى غرفة مظلمة وقتـــالا مستميتاً فى حلقـــة مفـــرغة حيث تأتي الضربات على المصـــالح العامة والأصدقاء أكثر من اصابتها بالأمراض الاجتماعية والأعداء .

وعلى هذا الأساس فلا تبدو فى الأفق أي معجزة سياسية أو اقتصادية أو عسكرية قادرة على رفع الحيـــاة الأفريقية من الحضيض الذى هي فيه الى حضـــارة القـــرن العشرين ، وتقدمهـــا المـــادي والعلمي . ■■■

الفهرس

الموضوعات | الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثاني

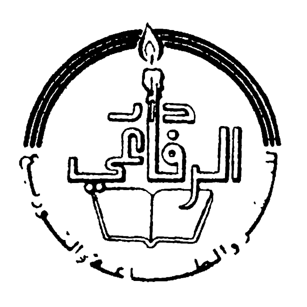
الفصل الثالث

الموضـــــــوعات	الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الموضـــــــوعات



المقر الرياض ـ الملز ـ تفرع شارع جرير ص.ب (١٥٩٠)

تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ ـ برقيا : دار الرفاعي

المملكة العربية السعودية

مطابع الروضة ـ جدة

المؤلف بقلمه...

. ولد في عام ١٩٤٠م لأسرة رعوية في بادية مدينة جالكعيو بالصومال، ودخل في المدارس الأهلية لحفظ القرآن الكريم وتعلم المبادئ الأولية للغة العربية والحساب.

. انتظم في مدارس البعثة التعليمية المصرية بالصومال حيث واظب على الدراسة فيها لغاية منتصف مرحلة التعليم الثانوي.

. وفي اكتوبر سنة ١٩٦٠ حظي بمنحة دراسية للتفوق قبله الى مصر حيث انهى تعليمه الثانوي والجامعي بتخرجه من كلية آداب القاهرة قسم اللغة العربية دفعة يونيو ١٩٦٦

. التحق فور تخرجه بالعمل بوزارة المعارف الصومالية متدرجا بسلم الوظيفي من مدرس الى ناظر الى مفتش اقليمي للتعليم حتى وصل درجة مفتش عام بوزارة المعارف مختتما بذلك خدمته في تلك الوزارة في مارس ١٩٧٩م.

. ثم قدم الى ارض المملكة العربية السعودية حيث يعمل حتى اليوم متمتعا بالاقامة فيها

الرياض في ٦/٦/١٤٠٢هـ

مطابع الروضة ـ جدة